

الباب الثاني

تأثير الديمقراطية في  
مشاعر الأمريكيين وعواطفهم

## الفصل الأول

# الأم الديمقراطية تحب المساواة حبا أقوى وأدوم من حبا الحرية

لا أراى بحاجة إلى القول بأن حب المساواة هذا، يعد أولى تلك العواطف التي نشأت من تساوى أحوال الناس الاجتماعية، وأقواها جميعاً. فلا يدهش القارئ إذن إن أنا تحدثت إليه عن هذه العاطفة قبل غيرها من العواطف الأخرى .

فقد لاحظ كل امرئ في عصرنا أن حب المساواة هذا يزداد كل يوم رسوخاً في نفوس الناس، وبخاصة في فرنسا فكم من مرة قيل بأن تعلق أبناء عصرنا بالمساواة لأشد من تعلقهم بالحرية وأوثق منه<sup>(١)</sup>. وإذ لم يتوصل أحد بعد إلى تعرف أسباب هذه الحقيقة، فلا غرو أن حاولت البحث عنها هنا .

فلنتصور نقطة قصبة متطرفة يمكن أن تلتقى عندها الحرية والمساواة، وتمتزج إحداها بالأخرى . ولنفرض أن جميع أفراد الشعب يشتركون في الحكم؛ ولكل واحد منهم فيه حق مساو للآخر . ولما كان كل شخص لا يختلف عن الآخرين، لم يكن منهم من يستطيع أن يمارس سلطة استبدادية عليهم، فالناس لا يكونون أحراراً إلا لأنهم متساوون كل المساواة، ولا يكونون متساوين تمام المساواة إلا لأنهم استكملوا حريتهم . فإلى هذه الحالة المثالية تتجه الأمم الديمقراطية، وهذا هو أكمل شيء يتسنى للمساواة أن تتخذه في هذه الدنيا؛ ولكن ثمت أشكال كثيرة أخرى لا تقل رغبة تلك الأمم فيها عن ذلك الشكل، وإن كانت دونه كلاً .

هذا، ومن الميسور أن يقام مبدأ المساواة في المجتمع المدني من غير أن يكون هذا المبدأ مسيطراً في عالم السياسة . فقد يكون للناس في هذا المجتمع حقوق متساوية، من حيث استمتاعهم بنفس الملذات، والاتحاق بنفس المهن، وبالتردد على نفس المحلات - جملة القول، لهم الحق في العيش بنفس الطريقة والسعى وراء جمع المال بطريقة واحدة، على الرغم

(١) كثيراً ما يستشهد على ذلك بنابوليون بونابرت فقد نال شهرة وحظوة كبيرتين لدى الناس . فمع أنه صادر الحرية، حرص على استيفاء المساواة بينهم .

من أنهم لا يشتركون جميعاً بأنصبة مساوية في شئون الحكم . بل إن نوعاً من المساواة قد يقوم حتى في عالم السياسة على الرغم من عدم وجود حرية سياسية فيه ، فقد يكون المرء مساوياً لجميع مواطنيه ، إلا فيمن هو سيد الجميع دون تمييز ، وهو الذى يختار من بينهم من يعهد إليهم بسلطانه ؛ ولا يشق علينا أن نتصور أشكالاً أو نظريات أخرى تتوافر للناس بحسبها ، مساواة كبيرة إلى جانب مؤسسات حرة ، حرية كبيرة كانت أو صغيرة ، بل حتى إلى جانب مؤسسات لا حرية فيها مطلقاً .

ومع أن الناس لا يمكن أن يصيروا متساوين مساواة مطلقة إلا إذا كانوا أحراراً كل الحرية ، مما يترتب عليه إدماج المساواة ، وقد بلغت أقصى مداها ، في الحرية ، وعندئذ يكون لدينا سبب وجيه يدعونا إلى تمييز الواحدة عن الأخرى ، فميل الناس إلى الحرية ، وميلهم إلى المساواة ، هما في الواقع شيان متمايزان ، ولا حرج من أن أضيف إلى ذلك ، أنهما يعدان في الأمم الديمقراطية شيئين غير متساويين .

وبمزيد من البحث والاستقصاء يتبين لنا أن في كل عصر حقيقة خاصة غالبية متصل بها سائر الحقائق ؛ وتؤدي هذه الحقيقة عادة إلى فكرة حافلة ، أو إلى شهوة طاغية تجتذب إليها جميع المشاعر ، وكل الآراء الذائعة في العصر ، ويجرفها معها حتى لتكون أشبه بمجرى عظيم تصب فيه جميع الروافد المجاورة .

لقد ظهرت الحرية في العالم في أوقات مختلفة ، وبأشكال شتى . فهي لم تكن مرتبطة أبداً بحالة اجتماعية معينة ، دون غيرها من الأحوال . ولا مقصورة على البلاد الديمقراطية وحدها ، فلا بد أن تكون إذن هي السمة التي تتميز بها العصور الديمقراطية عن سائر العصور ، أما الحقيقة الخاصة الغالبة . التي تتميز بها تلك العصور . فهي المساواة في الأحوال الاجتماعية ؛ وأما الشهوة الطاغية على الناس فيها ، فالغراه بهذه المساواة ، فلا تسألن عن سبب لتلك الروعة العجيبة التي افتتن بها الناس في العصور الديمقراطية واجتذابهم إلى العمل على أن يكونوا متساوين ؛ ولا عن تلك الأسباب الخاصة التي تجعلهم يؤثرن الاستمساك بالمساواة . ذلك الاستمساك الشديد ، عن سائر الميزات التي يقدمها إليهم المجتمع . فالمساواة هي السمة التي تتميز بها العصور التي يعيشون فيها . وفي هذا وحده ما يكفي لبيان السبب الذى دعاهم إلى إثارتها على ما عداها .

ولكن ثم عدة أسباب ، غير هذا السبب تدفع الناس في هذه العصور إلى أن يفصلوا المساواة على الحرية عادة .

فإن حدث ونجحت أمة ما في أن تقضى بنفسها على المساواة الغالبة على بلادها أو على الأقل ، في التقليل منها ، فإنها لم تصل إلى ذلك إلا بعد جهود طويلة شاقة ، إذ يجب عليها أن تعدل أحوالها الاجتماعية ، وتلغى قوانينها ، وتجدد آراءها ، وتغير عاداتها ، وتبدل أخلاقها ، أما الحرية السياسية فما أيسر فقداها ! فحسب الأمة أن تهمل الاستمساك بها ، فإذا بهذه

الحرية تفلت من أيديها . ومن ثم كان الناس لا يتشبثون بالمساواة لأنها عزيزة عليهم فحسب ، بل كذلك ، لأنهم يعتقدون بأنها يجب أن تدوم لهم .

هذا ، وقد يضر التطرف في الحرية السياسية سلامة الأفراد وهدوئهم ، وبممتلكاتهم الموروثة ، بل وبحياتهم كذلك ، وهذا أمر لا يخفاء فيه حتى على ذوى العقول المحدودة غير الفاحصة . وعلى النقيض من ذلك ، لا يستطيع غير الرجال اليقظين البعدي النظر أن يدركوا الأخطار التي تهددهم بها المساواة ، وهم عادة يتفادون الإشارة إليها أو ذكرها ، لأنهم يعلمون أن الكوارث التي يخشونها لن تصيب غير الأجيال المقبلة ، وهي أجيال لم يعد يفكر فيها غير فئة من أهل الجيل . هذا ، والبلايا التي قد تجرأها الحرية على البلاد بلايا مباشرة وواضحة للجميع ، ويتأثر بها الناس كلهم تأثراً كبيراً كان أو قليلاً ، أما الشرور التي قد يجرها على الناس الإفراط في المساواة فلا تتكشف لهم ببطء ، لأنها تتسرب إلى الهيئة الاجتماعية تدريجياً ، ولا ترى إلا من بعيد . وفي اللحظة التي تصبح فيها عيفة بارزة الأثر ، تكون العادة قد جعلت الناس يألفونها فلا يعودون يشعرون بها .

أما المزايا التي تأتيها الحرية ، فلا يستين أثرها إلا على مر الزمن ، ومن السهل كل السهولة أن يجد الإنسان في إدراك السبب الذي يحدثها ، على حين أن مزايا المساواة تتجلى مباشرة ، ويتيسر تتبعها دائماً وإرجاعها إلى الأصل الذي عنه صدرت .

هذا ، وقد تتيح الحرية السياسية ، من وقت لآخر لعدد من المواطنين متعاً ومسرات رفيعة ؛ على حين تمنح المساواة كل الناس مقداراً من المتع الصغيرة في كل يوم ؛ فمباح المساواة يشعر بها الناس جميعاً في كل لحظة تمر بهم ، فضلاً عن أنها في متناولهم أجمعين . فيشعر بها أنبل الناس ، كما يستعذبها ويستمتع بها ذوو النفوس العادية ، فالشهوة التي تخلقها المساواة شهوة قوية نشيطة وعامة في وقت واحد ، ولا يستطيع الناس أن يستمتعوا بالحرية السياسية من غير أن يدفعوا ثمنها بضع تضحيات ، ولا هم يحصلون عليها أبداً إلا بالكثير من الجهود ، على حين أن المسرات التي تؤدي إليها المساواة تتوافر من تلقاء نفسها ، فيبدو أن كل حدث من الأحداث الصغار التي تجري في الحياة الخاصة يؤدي إلى إيجاد هذه المسرات ، وحسب الإنسان أن يعيش ، كى يستمتع بها .

تحب الشعوب الديمقراطية المساواة دائماً ، وفي كل عصر من العصور ، ومع ذلك فثم عهود معينة يبلغ فيها غرام الناس بها درجة تقارب حد الجنون ، وذلك عندما ينهار النظام الاجتماعي القديم بعد أن ظل مهدداً بالسقوط أمداً غير قصير ، ولا يتم هذا الانهيار إلا بعد صراع داخلي مرير ، وبعد تحطيم الحواجز والسدود التي تفصل المواطنين بعضهم عن بعض ؛ وعندئذ يهرع الناس إلى المساواة ، ويندفعون إليها كما لو كانت غنيمة اغتتموها ، ثم هم يستمسكون بها استمساكهم بذخر يعضون عليه بالنواجذ ، خشية أن يسلبهم أحد إياها ؛ فحب المساواة ينفذ إلى قلوب الناس ويتغلغل فيها ويتسع حتى يملأ كل جوانبها فلا تقل لهم

إنهم باستسلامهم الأعمى لهذه الشهوة وحدها، يلحقون الضرر بأغز ما لديهم من مصالح، لأنهم سيصمون آذانهم عنك ؛ ولا تبين لهم أن الحرية تفلت من أيديهم، في أثناء ما يولون وجوههم شطر اتجاه آخر ؛ إنهم عمى لا يبصرون ؛ أو أنهم لا يستطيعون أن يميزوا في هذا العالم سوى شيء واحد جدير بأن يطلبوه ويسعوا وراءه جادين .

إن كل ما سبق أن قلته ليصدق على الأمم الديمقراطية جمعاء، أما ما سيل فيصدق على الفرنسيين وحدهم . فلم تنشأ الحرية ولم تترق في معظم الأمم الحديثة، وبخاصة في شعوب القارة الأوربية، إلا عندما أخذت الأحوال الاجتماعية تتجه نحو المساواة، ونتيجة لهذه المساواة نفسها . لقد كان الملوك المستبدون أعظم من عمل على جعل رعاياهم كلهم في مستوى واحد . فقد كانت المساواة في هذه الأمم أسبق من الحرية فيها، وهكذا كانت المساواة أمراً معروفاً عندما كانت الحرية لا تزال بدعة جديدة . فقد خلقت المساواة لنفسها عادات وآراء وقوانين خاصة، على حين ظهرت الحرية وحدها، ولأول مرة في الوجود . وهكذا كانت الحرية لا تزال مسألة رأى، وميل، بينما كانت المساواة قد تسلمت إلى عادات الشعب وسيطرت على آدابه الأخلاقية، وصفت كل عمل في الحياة بصيغة خاصة، مهما كان ذلك العمل وضعياً، فكيف بنا لا نتمتع إذن إن آثر معاصرونا الواحدة على الأخرى ؟

وفي اعتقادي أن الشعوب الديمقراطية تميل بفطرتها إلى الحرية، فإن تركت هذه الشعوب وشأنها سمعت وراءها وأولعت بها، وتألّت كل الأمم إن هي حرمتها يوماً ما، أما من حيث المساواة فغرامهم بها عنيف، وموصول لا ينقطع، وقوى لا يقهر، فتراهم يطالبون بالمساواة في الحرية، وإن هم لم يحصلوا عليها ظلوا يطالبون بها حتى في العبودية؛ فأسهل عليهم أن يتحملوا الفقر والذل والهمجية، من أن يطبقوا الأرستقراطية .

ويصدق هذا على كل المصور، ولا سيما عصرنا الحاضر، فجميع الناس (وجميع الدول) الذين يفتون أن يناضلوا ضد هذه الشهوة التي لا تقاوم سيكون نصيبهم الهزيمة وسيضارون بها، وقد يهلكون بسببها . فالحرية لا يمكن أن تقوم في عصرنا من غير مساواة، بل إن الاستبداد نفسه لا يستطيع أن يحكم إلا بتأييد منها .

## الفصل الثاني

### الفردية في البلاد الديمقراطية

أوضحت من قبل السبب في أن كل إنسان في عصر المساواة يستمد آراءه من البحث عنها في ذات نفسه، وأوضح الآن كيف حدث في العصور نفسها أو وجه الإنسان كل عواطفه نحو نفسه وحدها. هذا، ولفظ الفردية تعبير جديد ولدته فكرة جديدة، فلم يكن أجدادنا يعرفون إلا لفظة «الأناية»، والأناية محبة المرء نفسه حباً عارماً مسرفاً يجعل صاحبه يربط كل شيء بذاته هو، ويؤثرها على كل شيء في الوجود، أما «الفردية» فعاطفة ناضجة هادئة تجعل كل عضو من أعضاء «الجماعة» ميالاً إلى الانفصال عن جملة بني جنسه، فيتبدم هو وأسرته وأصدقائه؛ ثم بعد أن يكون لنفسه هكذا مجتمعاً صغيراً خاصاً، إذا به يدع المجتمع الكبير وشأنه، راضياً مختاراً. فالأناية تنشأ من الغريزة العمياء، على حين تنشأ الفردية عن حكم خاطيء أكثر مما تنشأ عن وجدان سقيم، فهي ترجع إلى نقصان في العقل بقدر ما ترجع إلى انحراف أو مرض في القلب.

فالأناية تفسد بذور كل فضيلة، أما الفردية فلا تضعف في البداية إلا الفضائل الخاصة بالحياة العامة، ولكنها تهجم في النهاية سائر الفضائل وتقضى عليها؛ وينتهي بها الأمر إلى أن تندمج في الأناية ذاتها، ذلك أن هذه الأناية رذيلة قديمة قدم العالم، فهي لا تختص بشكل معين من أشكال المجتمع أكثر مما تختص بغيره، أما الفردية فمردداً إلى أصل ديمقراطي، وتهدد أن تنتشر بالنسبة عنها التي تنتشر بها المساواة.

وفي الأمم الأرستقراطية، حيث تظل الأسر قروناً طويلاً ثابتة على حالة واحدة، ومستقرة في الغالب في بقعة واحدة، تظل جميع الأجيال فيها تبدو وكأنها متعاصرة، حتى ليكاد كل امرئ أن يعرف دائماً أجداده ويوليهم الاحترام الواجب لهم، ويخيل إليه أنه يرى حتى ذراريه، ويحجم. ويفرض على نفسه راضياً واجبات نحو هؤلاء الذراري وأولئك الأجداد؛ وكثيراً ما يضحى بملذاته الشخصية في سبيل من سبقوه، ومن سيخلفونه من بعده. وزيادة على ذلك، فالمؤسسات الأرستقراطية تؤدي إلى ربط كل إنسان بعدد من مواطنيه. ولما كانت الطبقات في الشعب الأرستقراطي متميزة ومعلمة، ودائمة، صار أفراد كل طبقة يعدون طبقتهم أشبه شيء بوطن مصغر لهم، فهي ملموسة أكثر من الوطن

الكبير وأعز منه عليهم. ولما كان جميع المواطنين في البلاد الأرستقراطية يشغلون مراكز ثابتة، كل مركز منها فوقه آخر، وترتب على ذلك أن صار كل منهم يرى فوقه رجلاً أسمى منه مقاماً ولا غنى عنه حمايته، ويرى دونه رجلاً آخر، له أن يطالب بمعاونته ونصرته، فالناس الذين يعيشون في أزمنة أرستقراطية<sup>(١)</sup> متصلون إذن صلة متينة بشيء خارج دائرتهم الخاصة، ويميلون دائماً إلى نسيان أنفسهم، ولا شك في أن فكرة الإخاء الإنساني العامة كانت ضعيفة في تلك الأزمنة، وغامضة كذلك، وكان يندر أن يفكر الناس في تكريس أنفسهم في العمل في سبيل إسعاد البشرية، لكنهم كثيراً ما كانوا يضحون بأنفسهم في سبيل بعض الناس. أما في العصور الديمقراطية فالأمر على العكس من ذلك، فعندما تكون واجبات كل فرد نحو بني جنسه أوضح بكثير مما هي في العصور الأرستقراطية، فالإخلاص في خدمة شخص معين يصبح أمراً نادراً كل الندرة، ذلك لأن رابطة الأخوة البشرية وإن كانت امتدت فإنها تكون قد استرخت أيضاً.

ففي الأمم الديمقراطية تظهر أسرات جدد باستمرار، وتختفي أخرى، وكل ما يتبقى من الأسر القديمة تتغير أحواله ومظاهره، فخيوط الزمن تنقص في كل لحظة، وتمحى آثار الأجيال. فسرعان ما ينسى السابقون، أما اللاحقون فليس لأحد فكرة عنهم: فاهتمام الإنسان مقصور على من حوله وحدهم، وكلما ازداد اقتراب طبقة أخرى وازداد اختلاطهم بها أصبح أعضاؤها غير متمايزين، وفقدوا مشخصات طبقتهم، لقد صاغت الأرستقراطية سلسلة من جميع أعضاء المجتمع، تبدأ من الفلاح وتنتهي بالملك، فجاءت الديمقراطية وحطمت هذه السلسلة وفصلت كل حلقة فيها عن الأخرى.

وكلما تساوت الأحوال الاجتماعية ازداد عدد الأشخاص الذين، وإن كانوا لا يعدون من الأغنياء، وليس لهم من القوة ما يخوهم ممارسة نفوذ واسع على إخوانهم، حصلوا على ثقافة وثروة تكفيان لسد كل احتياجاتهم؛ أو كانوا احتفظوا بما كان لديهم منهما من قبل؛ فهم ليسوا مدينين بشيء لأحد ما، ولا هم ينتظرون شيئاً من أحد، فقد ألفوا أن يعتبروا أنفسهم أنهم وحدهم، ومستقلون عن سائر الناس، وأنهم ليتخيلون أن مصيرهم كله في أيديهم هم.

وهكذا يتبين لنا أن الديمقراطية لا تجعل كل إنسان ينسى أجداده فحسب، بل إنها لتخفي عنه حتى ذراريه، وتفصل عنه معاصريه، فهي تضطره إلى الاقتصار على نفسه وحده دائماً، وتهدده بأن تقضى عليه في النهاية بالعزلة التامة.

(١) يقصد المؤلف بالذين يعيشون في أزمنة أرستقراطية كالأقطاعيين، وأتباعهم.

## الفصل الثالث

# الفردية أقوى في أعقاب ثورة ديمقراطية منها في أى عصر آخر

في الفترة التي تعقب قيام جماعة ديمقراطية على أنقاض الأرستقراطية، قد يذهل الإنسان من جراء ما يرى من انعزال الناس بعضهم عن بعض، ومن جراء ما يترتب على هذا الانعزال من أنانية، فلا تشمل هذه الأمم الديمقراطية على عدد كبير من المواطنين المستقلين فحسب، بل إنها لتحفل دائماً بالرجال الذين لم يتمتعوا باستقلالهم إلا بالأمس القريب، فتملوا بما حصلوا عليه من قوة جديدة، وجعلوا يبالغون في الاعتزاز بثقتهم بقوتهم هذه، وإذا كانوا يتصورون أن يوماً سيأتي عليهم يحتاجون فيه إلى الاستعانة بأحد من بنى جنسهم لم يتخرجوا من أن يعلنوا في الملأ أنهم لا يفكرون إلا في أنفسهم .

ومن النادر أن تستسلم أرستقراطية ما، إلا بعد نضال طويل تحتدم فيه خصومات وعداوات مريرة بين طبقات المجتمع المختلفة، وتظل هذه العداوة قائمة حتى بعد سحق الأرستقراطية؛ وتتجلى آثارها ظاهرة في ذلك الاضطراب الديمقراطي الذي يعقب هزيمتها، فالأعضاء الذين كانوا في أسمى درجات السلم الاجتماعي المنهار لا ينسون بسرعة ما كانوا ينعمون به من عظمة سلفت، وسيظلون يعدون أنفسهم غرباء وسط المجتمع الذي أعيد تنظيمه، ويعدون جميع الناس الذين سوتهم الجماعة بهم ظالمين؛ فما قد يصيب هؤلاء الظلمة من أحداث لا يستثير فيهم أى عطف. لقد فقدوا أندادهم وأقرانهم، ولم يعودوا يشعرون أن ثمة مصلحة مشتركة تربطهم بمصائرهم؛ وإذا صار كل منهم يقف بمنأى عن الآخرين، فقد خيل إليه أنه لم يعد مطالباً بأن يعنى إلا بشئونه وحده. وأما الذين كانوا، على العكس من ذلك، في الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعي، ثم رفعتهم الثورة المفاجئة إلى المستوى العام، فلا يستطيعون أن يتمتعوا باستقلالهم الذي نالوه حديثاً من غير أن يساورهم قلق خفى، فإن هم صادفوا بعضاً من رؤسائهم السابقين وشعروا بأنهم صاروا وإياهم في مستوى واحد وقفوا بمنأى منهم وحدجهم بأنظار حداد تنم عن الشماتة والخوف معاً .

ففى نشأة المجتمعات الديمقراطية نجد المواطنين إذن أميل ما يكونون إلى الانعزال ، فإن كانت الديمقراطيات لاتدفع الناس إلى التقارب ، فالثورات الديمقراطية تجعلهم يتحاشون بعضهم بعضاً ، ويحفظون فى عصر المساواة ، بتلك العداوات التى كانت قد خلقتها فيهم حالة اللامساواة .

فأكبر ميزة امتاز بها الأمريكيون ، أنهم وصلوا إلى حالة الديمقراطية من غير حاجة إلى الاكثواء بنار حرب ديمقراطية ، وأنهم ولدوا متساوين من غير حاجة إلى أن يعملوا على أن يصيروا كذلك .

## الفصل الرابع

# يواجه الأمريكيون نتائج الفردية بإنشاء المؤسسات الحرة

من طبائع الاستبداد أنه مخوف كثير الارتياب في الناس، فيرى في التفريق بينهم خير ضمان لبقائه، فلا غرو أن دأب يوجه كل همه إلى استبقائهم متفرقين منعزلين، فليس ثمة رذيلة من رذائل البشر تظفر لديه بالحظوة والقبول بقدر ما تظفر به الأنانية، فما أيسر على المستبد أن يغفر لرعاياه عدم حبه إياه، ماداموا لا يحجون بعضهم بعضاً؛ فهو لا يسألهم أن يعاونوه على النهوض بأعباء الدولة، بل حسبه منهم ألا يطمعوا في حكمها؛ وإنه ليدمغ الذين يجمعون صفوفهم ويضمون جهودهم ليتعاونوا على إسعاد البلاد، بأنهم متمردون، دعاة الاضطراب والفرقة؛ فنراه يحرف معاني الألفاظ عن مواضعها، فيمتدح من لا يكثرثون لأحد سوى أنفسهم فيسميهم بالمواطنين الصالحين.

وهكذا نجد الرذائل التي يولدها الاستبداد هي نفسها التي تؤيدها المساواة، وتنميتها، فهما أمران يكمل كل منهما الآخر، ويتعاونان بطرق خبيثة مؤذية، فالمساواة تقيم الناس إلى جانب بعضهم البعض من غير أن تربطهم بأية رابطة مشتركة، أما الاستبداد فيقيم بينهم الحواجز والأسوار لتستبقبهم منعزلين متفرقين، فالمساواة تجعلهم غير مبالين لمراعاة مصائر سواهم من بنى جنسهم، على حين يجعل الاستبداد عدم الاكتراث العام نوعاً من الفضيلة العامة.

فالاستبداد خطر إذن في جميع العصور، ولكنه يخشى منه كل الحشية في العصور الديمقراطية بخاصة، وليس يشق علينا أن ندرك أن الناس في هذه العصور نفسها، شديدو الحاجة إلى الحرية، فعندما تجبر أعضاء الجماعة على العناية بالشئون العامة يضطرون إلى الابتعاد عن الدائرة التي فيها مصالحهم الخاصة، وقد ينتزعون من آن لآن من التأمل فيما يجري في نفوسهم، فعندما يأخذ الإنسان في معالجة الشئون العامة بالاشتراك مع غيره، يبدأ يشعر بأنه ليس بالمستقل عن بنى جنسه كما خيل إليه لأول وهلة، وأن عليه أن يكثر من التعاون معهم إن شاء أن يعاونوه.

ف عندما يتولى الشعب الحكم لا يكون هناك شخص واحد لا يشعر بما لحسن رأى الشعب فيه من قيمة؛ أو من لا يسعى وراء الحظوة عنده بأن يتودد إلى أولئك الذين سيميش بين ظهرانيهم، ويعمل على أن يجذب حسن تقديرهم له، فكثير من الشهوات التي تميمت قلوب الناس وتفرقتها تضطر إذن إلى النكول والاختفاء وراء ستار، فتتشر الكبرياء، ولا يستطيع الازدراء أن يسفر عن وجهه، وتخشى الأناية نفسها، ولما كانت معظم الوظائف في الحكومات الحرة تملأ بطريقة الانتخاب، صار الذين كانت عقولهم السامية، أو آمالهم العراض مقيدة كل التقييد في حياتهم الخاصة، يشعرون دائماً بأنهم لا يستطيعون أن يستغفوا عمّن حولهم من الناس، ففي مثل هذه الأوقات يتعلم المواطنون إذن أن يفكروا في بنى جنسهم، يدفعهم إلى ذلك طموحهم نفسه؛ وكثيراً ما يجدون بشكل ما، أن مصلحتهم تقتضيهم أن ينسوا ذواتهم .

هذا وقد يعترض علىّ هنا باعتراض مستمد من طرق الدس والغدر التي تجرى في الانتخابات، وبالوسائل الخيثة التي يستخدمها المرشحون في السعاية بخصوصهم، فهذه أسباب للعداوة تزداد كلما تكرر حدوث الانتخابات العامة بكثرة، ولا شك في أنها مستطيرة. ولكنها مع ذلك شرور عابرة، تزول، على حين أن ما يترتب عليها من منافع باق، يدوم، فرغبة بعض الناس في النجاح في الانتخابات قد تدفعهم إلى العداوة العنيفة مدة من الزمن، ولكن هذه الرغبة نفسها تؤدي بجميع الناس في النهاية إلى أن يتعاونوا. وإن حدث عرضاً أن كانت الانتخابات تفرق بين الصديقين، فقد يجمع نظام الانتخاب بين الكثيرين من المواطنين ويلم شعثهم، ولولا هذا النظام لظلوا لا يعرف الواحد منهم الآخر، فالحرية تؤدي إلى عداوات شخصية، على حين يولد الاستبداد في الناس عدم اكتراث عام .

لقد ناضل الأمريكيون ضد نزعة المساواة إلى عزل الناس وتفريقهم بعضهم عن بعض، بأن أنشأوا المؤسسات الحرة، فنجحوا في قهر تلك النزعة. ولم يكن المشرعون الأمريكيون يعتقدون أن تمثيل الأمة كلها تمثيلاً عاماً يكفي أن يدفع عن المجتمع داء يعدونه متوطناً في كيان الجماعة الديمقراطية، وحيثاً، قاضياً عليه في الوقت نفسه؛ بل رأوا من الخير أن ينفثوا روح الحياة السياسية في كل جزء من أجزاء الدولة حتى يستكثروا من فرص العمل الجماعى لكل أعضاء الجماعة، مما يشعرهم باستمرار باعتمادهم بعضهم على بعض، ولقد كانت فكرة حكيمة رائعة حقاً. فالمسائل العامة في أى قطر من الأقطار لا تشغل إلا بال الزعماء السياسيين. وهم لا يجتمعون إلا من حين إلى حين، وفي مواضع معينة، ولما كانوا كثيراً ما يغيبون بعد ذلك عن بعضهم البعض، ولا يتراءون إلا نادراً تعذر أن تتعقد بينهم روابط وثيقة ودائمة، ولكن إن كان الغرض من الاجتماع إدارة الشئون لبقعة معينة، كالقرية أو المركز مثلاً، بوساطة ناس من أهلها ذاتهم، صار هؤلاء الناس في أنفسهم على اتصال دائم ميسور بعضهم ببعض، فيضطرون بشكل ما إلى التعارف والتراضى، وإلى أن يتكيفون بعضهم ببعض .

فليس من الهين إخراج رجل من دائرته الخاصة ، لتجعله يهتم بشئون الدولة كلها وبمصائرها ، فهو لا يدرك في وضوح ما عسى أن يكون لمصائر الدولة هذه من تأثير فيما سيصيبه هو من خطر في المستقبل . أما إذا كان الموضوع خاصاً بمسألة شق طريق في ضيعة ، أدرك على الفور أن ثمة صلة بين هذه المسألة العامة الصغيرة ، وبين أعظم شأن من شئونه الخاصة . وعندئذ تتكشف له تلك الصلة الوثيقة التي تربط مصلحته الخاصة بالمصلحة العامة ، من غير حاجة إلى أن يبينها له أحد ما ، وبذلك يتيسر إنجاز الكثير عن طريق العهد إلى المواطنين بإدارة الشؤون الصغرى ، أكثر مما يمكن أن ينجز عن طريق تحويلهم الإشراف على المسائل الكبرى بقصد استئثار اهتمامهم بالمصلحة العامة وإقناعهم بأنهم بحاجة دائمة إلى بعضهم البعض للعناية بإنجاز المسائل العامة هذه ، إن عملاً باهراً يتم على يديك قد ينيلك الحظوة لدى الشعب في طرفه عين ، ولكن إن شئت أن تحظى بحب الناس الذين حولك وباحترامهم فعليك أن تقوم لهم بسلسلة طويلة من الخدمات الصغيرة ، ومن مساع حميدة مستورة تبذلها في سبيلهم ؛ ومن دءوبك على الظهور بمظهر الرفيق بهم ؛ ومن أن تشتهر بينهم بالنزاهة وعدم تمييز بعض الناس على بعض ، فالخريات المحلية التي تجعل عدداً كبيراً من المواطنين يقدرون مودة جيرانهم وذوى قرباهم ، تزيد تقرب الناس بعضهم من بعض باستمرار وتحملهم على أن يتعاونوا على الرغم من تلك النزعات التي تعمل على التفريق بينهم .

هذا ، ويعنى أثرياء المواطنين في الولايات المتحدة كل العناية بألا يقفوا بمعزل عن الشعب ، بل يعملون على العكس من ذلك ، على التقرب منهم باستمرار ، فهم يرتاحون إلى الاستماع إلى ما يقولون ، ويتحدثون إليهم في كل يوم ؛ لعلمهم أن الأثرياء في البلاد الديمقراطية بحاجة دائمة إلى الفقراء ، إن الإنسان ليستطيع في هذه البلاد أن يجيب الفقراء في نفسه بحسن المعاملة أكثر مما يجتذبهم بما يقدقه عليهم من واسع الخيرات . هذا ، وإن ضخامة هذه الخيرات نفسها ، التي تكشف لهم عن مدى الفرق بين الغنى والفقير ، لتجرح نفوس المستفيدين منها ، وتحدث فيهم شيئاً من الألم الحفى ، على حين أن لاصطناع البساطة في حسن المعاملة ، روعة ترضيهم كل الرضى ، وإظهار الألفة في المعاملة الطيبة تجتذبهم دائماً ، بل إن بعض الحشونة فيها قد لا تكون جارحة لهم في كل حال ، هذه حقيقة لا تستسيغها عقول الأغنياء ، ولا هي ترسخ فيها على الفور ، بل إنهم يقاومونها عادة ، مادامت الثورة قائمة ؛ ولا هم يعترفون بها عقب الانقلاب مباشرة ، إنهم ، لاريب ، على استعداد لعمل ما فيه الخير للشعب ، ولكنهم يؤثرون مع ذلك أن يعملوا على استبقائهم على بعد باع منهم ، إذ يخيل إليهم أن في هذا الكفاية لهم ، ولكنهم فيما خالوا مخطئون كل الخطأ . إنهم قد ينفقون أموالاً طائلة ، على من حوهم ، ولكنهم مع ذلك لا يجتذبون قلوبهم . إن هؤلاء لم يطالبوهم بأن يصحوا بأموالهم في سبيلهم ، بل كل ما يطالبونهم به لا يعدو النزول عن كبرياتهم وعجرفتهم .

يقولون إن كل امرئ في الولايات المختلفة يبذل قصارى جهده في اختراع الوسائل التي تعاون على زيادة الإنتاج، وثروة الجماعة، وكل ما يسد احتياجاتها، فأغزر الناس علماء وأوسعهم ثقافة في كل مركز (كانتون) يستغلون علمهم وثقافتهم باستمرار للكشف عن أسرار جديدة، وحقائق جديدة، تعين على زيادة الرخاء العام في البلاد فإذا ما توصلوا إلى كشف من هذا القبيل سارعوا إلى تقديمه للشعب .

فإن نحن أمعنا في دراسة شتى الرذائل، ونقاط الضعف المختلفة التي كثيراً ما تتجلى في الذين يتولون الحكم في أمريكا، لاستولت علينا الدهشة مما نشاهده، مع ذلك، من رخاء وازدهار، ولكنها دهشة في غير محلها . فليس الموظفون والحكام المنتخبون هم الذين يجعلون أمريكا الديمقراطية تزدهر وتوسع، ولكنها ازدهرت وسعدت لأن الموظفين ينتخبون .

ليس من الإنصاف أن نقول أن وطنية الأمريكيين، أو الغيرة التي يديها كل منهم على إسعاد مواطنيه، خالية من كل إخلاص، فعل الرغمة من أن المصلحة الخاصة هي التي توجه الشطر الأعظم من أفعال الناس في الولايات المتحدة، كما هي الحال في البلاد الأخرى، فإنها لا توجه أفعالهم كلها، فكثيراً ما رأيت أمريكيين يقومون بتضحيات كبيرة في سبيل المصلحة العامة، وشاهدت مئات المرات أنهم لم يقصروا أبداً في تقديم المعونة الخالصة بعضهم لبعض . فالمؤسسات الحرة التي عند أهالي الولايات المتحدة، والحقوق السياسية التي يمارسونها ممارسة فعالة، تذكر كل مواطن منهم على الدوام، وبطرق شتى لاحصر لها، بأنه يعيش في مجتمع، فهذه المؤسسات توجه عقله باستمرار إلى أن واجب الناس ومصالحهم تقتضيهم أن يجعلوا أنفسهم نافعين لبلبي جنسهم . وإذا لا يرى المواطن منهم أى سبب خاص يدعو إلى كراهيتهم، لأنه ليس أبداً سيذاً عليهم، ولا عبداً لهم - اتجه قلبه بسرعة إلى عمل الخير لهم، فالتاس يتجهون إلى العمل للمصلحة العامة بالضرورة والحاجة أولاً . ثم فيما بعد باختيارهم ورضاهم، فما كان في البداية عملاً مقصوداً يصبح أشبه ما يكون بنزعة فطرية فيهم؛ وبفضل العمل على ما فيه الخير لإخوانه المواطنين يكتسب المرء في النهاية الميل إلى خدمتهم، حتى يصبح هذا الميل عادة راسخة فيه .

كثيرون في فرنسا هم الذين يعدون المساواة في الظروف شراً، ويعدون الحرية السياسية<sup>(١)</sup> شراً آخر . فإن هم اضطروا إلى قبول أحد الشرين، بذلوا كل جهد للإفلات من الآخر على الأقل . إلا أنني أخالفهم في هذا، وأرى أنه ليس سوى علاج واحد ناجع للأضرار التي قد تنجم عن المساواة، وذلك العلاج هو الحرية السياسية .

(١) المقصود بالحرية السياسية هنا، إسهام المواطنين في الشؤون العامواشراكهم الفعل بنصيب فيها .

## الفصل الخامس

### استفادة الأمريكيين من الجمعيات العامة في الحياة المدنية

لست أهدف هنا إلى التحدث عن الجماعات السياسية التي يقيمها الناس للدفاع عن أنفسهم ضد طغيان الأغلبية، أو ضد اعتداء القوة الملكية عليهم، فقد سبق أن تناولت هذا الموضوع بالبحث في موضوع آخر. فإذا لم يتعلم المرء - كلما ازداد ضعفه من حيث هو فرد، وعجز عن المحافظة على حرية مجهوده الفردى - أن يتعاون مع مواطنيه على الدفاع عنها؛ كان لامدوحة للاستبداد من أن يزداد بازدياد المساواة.

ولكننى سأحدث عن تلك الجمعيات التي تنشأ في الحياة المدنية وليس لها أى غرض سياسى. أما الجماعات السياسية التي في الولايات المتحدة فلا تعدو أن تكون ناحية واحدة من ذلك العدد الضخم من جملة الجماعات الكثيرة التي تنشأ في تلك البلاد. الأمريكيون على اختلاف ظروفهم وميولهم وأعمارهم يسارعون إلى إنشاء الجمعيات. فليس عندهم شركات تجارية وصناعية يشاركون فيها جميعاً فحسب، بل عندهم كذلك جمعيات شتى من آلاف الأنواع. فثم جمعيات دينية وأخلاقية، جمعيات جادة وأخرى هازلة، جمعيات عامة للجميع، وأخرى خاصة كل الخصوص؛ جمعيات ضخمة، وأخرى صغيرة كل الصغر. فهم ينشئون الجماعات، لإقامة الحفلات والملاهي، ولإنشاء المعاهد الدينية، والحانات والكنائس، ولنشر الكتب، وإرسال البعثات الدينية إلى أقاصى الأرض؛ ويؤلفون جمعيات لبناء المستشفيات والسجون والمدارس. وإن كان المقصود نشر فكرة معينة بين الناس، أو تكوين عاطفة معينة فيهم، عن طريق تشجيع المثل الطيبة والقذوة الحسنة، عمدوا في كل ذلك إلى إنشاء الجمعيات. فحينما نجد الحكومة في فرنسا على رأس مشروع جديد، نجد في إنجلترا رجلاً وجهاً من ذوى المكانة، أما في أمريكا فلا شك في أننا سنجد جمعية.

صادفت في أمريكا أنواعاً كثيرة من الجمعيات قامت لمختلف الشئون والأغراض، ولا أخفى عن القارئ أنه لم تكن لدى أية فكرة عنها من قبل، وكثيراً ما أعجبت بتلك المهارة المعجبية التي نجح بها أهالى الولايات المتحدة في اقتراح غرض مشترك عام توجه إليه جهود عدد كبير من المواطنين، وفي إقناعهم بأن يتطوعوا مختارين لمناصرتة والعمل على إنجازه وإنجاحه.

هذا، وقد زرت بعد ذلك بلاد الإنجليز، وهي تلك البلاد التي اقبس منها الأمريكيون بعض قوانينهم، والكثير من عاداتهم. ويخيل إليّ أن مبدأ تكوين الجمعيات لم يكن مرعياً في إنجلترا بما يشبه تلك المهارة، ولا ذلك الاستمرار، كما هي الحال عند الأمريكيين، فكثيراً ما ينجز الإنجليز أعمالاً جسيمة فرادى، على حين ينشئ الأمريكيون الجمعيات لإنجاز حتى أصغر المشروعات وأتفهاها. ولا يخفى أن الإنجليز يعدون الجماعات وسيلة ناجعة من وسائل إنجاز العمل. أما الأمريكيون فيخيل إليّ أنهم يعدونها الوسيلة الواحدة عندهم لتحقيق كل غرض.

وهكذا نجد أعرق أمة ديمقراطية في العالم، هي تلك التي أتقن فيها الناس أيما إتقان في عصرنا الحاضر، فن التضايف على تحقيق أغراضهم المشتركة، وبلغوا بهذا الفن حد الكمال، وطبقوا هذا الفن الجديد فعلاً على عدد كبير من الأغراض. فهل كان هذا من قبيل المصادفة، أم ثمة صلة ضرورية في الحقيقة بين مبدأ تكوين الجمعيات ومبدأ المساواة؟

تضم الشعوب الأرستقراطية دائماً - بين جمهور كبير من الأفراد الذين لا يستطيعون بمفردهم أن يعملوا شيئاً ما - تضم عدداً من المواطنين الواسعي الثراء الذين يستطيع الواحد منهم أن ينهض وحده بمشروعات جسام. فليس المواطنون فيها بحاجة إلى التكلل ليعملوا؛ فهم مرتبطون بعضهم ببعض أوثق ارتباط. فكل مواطن واسع الثراء، قوى النفوذ يعد في ذاته رئيساً لجماعة دائمة إلزامية، تتكون من جميع أتباعه، ومن الذين يعتمدون عليه، أو أولئك الذين يجبرهم قسراً على أن يدعوا لتففيذ مقاصده.

والأمر على العكس من ذلك في البلاد الديمقراطية حيث نجد جميع المواطنين ضعافاً غير مستقلين لا يكادون يستطيعون أن يعملوا وحدهم شيئاً يذكر، ولا يستطيع واحد منهم أن يجبر إخوانه على أن يقدموا له أية معاونة؛ فكلهم ضعاف إذن لا حول لهم ولا قوة، إن لم يعملوا مختارين على أن يتعاونوا ويخلصوا في تعاونهم. فإن لم يكن عند أهالي البلاد الديمقراطية حق الاجتماع لأغراض سياسية، ولا الميل إليه، تعرض استقلالهم لأخطار جسام. ولكنهم يستطيعون، مع ذلك، أن يحفظوا بثروتهم وعلومهم وثقافتهم زمناً طويلاً؛ أما إذا لم يكتسبوا أبداً عادة تكوين الجمعيات في أمور الحياة العادية، تعرضت الحضارة نفسها للخطر. فالشعب الذي يفقد فيه الأفراد، القدرة على إنجاز الأعمال الكبيرة بمفردهم دون أن يحصلوا على وسيلة إنجازها بالجهود الجماعية، سرعان ما يتدهور ويعود إلى الهمجية.

ولكن الحالة الاجتماعية نفسها التي تجعل إنشاء الجمعيات ضرورة في البلاد الديمقراطية، هي نفسها، لسوء الحظ، التي تجعل تكوين هذه الجمعيات أشق في هذه الأمم منه في غيرها. فعندما تتفق آراء عدد من الأعضاء في بلد أرستقراطي على إنشاء جمعية، فليس أسهل عليهم من أن يجتمعوا لتكوينها. ولما كان كل واحد منهم سيجلب معه إلى هذه

الجمعية قوة كبيرة، جاز أن يكون عدد أعضائها صغيراً محدوداً. ولا يخفى أنه كلما كان أعضاء الجمعية محدودى العدد، سهل عليهم أن يتعاونوا ويتفاهموا ويضعوا لأنفسهم نظاماً ولوائح ثابتة. ولكن أمثال هذه الفرص لاتتاح للناس في البلاد الديمقراطية حيث يقتضى الأمر أن يكون عدد الأعضاء المجتمعين كبيراً دائماً، مما يحول دون توافر أية قوة تذكر لجمعيتهم .

هذا، ولا يخفى أن الكثير من المواطنين لا يجدون في هذه الصعوبة شيئاً يدعو إلى القلق والحيرة، فهم يذهبون إلى أنه كلما كان المواطنون ضعفاء وغير أكفاء للنهوض بأعباء الأعمال، وجب علينا أن نجعل الحكومة قوية نشيطة حتى يتيسر للأمة في حملتها أن تهض بما لم يعد في طاقة الأفراد أن يضطلعوا به. ويعتقد هؤلاء أن هذا يحل المشكل، ولكنهم واهمون في رأى .

قد تستطيع الحكومة أن تقوم بما تعمله بعض الشركات الأمريكية الكبرى، وقد حاولت ذلك فعلاً عدة ولايات في الاتحاد الأمريكى. ولكن أية قوة سياسية تستطيع أن تقوم بتنفيذ تلك الكثرة الهائلة من المشروعات التى ينفذها المواطنون الأمريكيون كل يوم بمعاونة مبدأ الجماعات هذا؟ ليس عسيراً علينا أن نتنبأ باقتراب الوقت الذى تضعف فيه قدرة الإنسان شيئاً فشيئاً عن أن ينتج بمجهده وحده أبسط ضروريات الحياة، فستزداد الأعباء الملقاة على الحكومة زيادة متصلة على الدوام. وأن مجهودات هذه الحكومة نفسها ستزيد تلك الأعباء أعباء أخرى كل يوم. فكلما حلت الحكومة محل الجمعيات والشركات، وازداد الأفراد ضعفاً من جراء فقدانهم الميل إلى التكتل والتعاون، ازدادت حاجتهم إلى الاستعانة بالحكومة: تلك هى أسباب ونتائج تخلق بعضها بعضاً باستمرار. فهل سينتهى الأمر ياترى بأن تضطلع «الإدارة العامة» نفسها بجميع الصناعات والمتاجر التى لا يستطيع المواطن الفرد أن يقوم بها وحده؟ وإن نحن فرضنا أن جاء الوقت الذى تنوزع فيه الأراضى الزراعية كلما تنفتت قطعاً صغاراً لانهاية لها نتيجة التطرف في تقسيم الأراضى، حتى أصبح من الصعوبة بمكان زرعها إلا بوساطة جماعات من الفلاحين - فهل يجب على رئيس الحكومة إذن أن يترك دفعة الدولة ليسير وراء المحراث بنفسه؟ إن إخلاص الشعب الديمقراطى وعقله ليكونان في خطر، شأنهما في ذلك شأن الأشغال التجارية والصناعية إذا ما قامت الحكومة وأحلت نفسها محل جميع الشركات والجمعيات الخاصة في كل مكان .

لا تترقى العواطف والقلوب والآراء، وتنمو وتوسع وتكبر، ولا يترقى العقل البشرى ويتطور إلا من جراء تأثير الناس بعضهم في بعض. وسبق أن بينت أن هذه المؤثرات تكاد تكون في حكم المدومة في البلاد الديمقراطية، ومن ثم كان لابد من إدخالها فيها بطرق اصطناعية، وهذا ما تستطيع الجماعات وحدها أن تضطلع به وتؤديه .

ف عندما يعتق المواطنون في بلد أرسقراطي فكرة جديدة، أو عندما تتكون فيهم عاطفة جديدة، عينوا لها بشكل ما مركزاً سامياً إلى جانب مراكزهم في المستوى العالى الذى يحيون فيه هم أنفسهم - إن صح لنا هذا التعبير. وسرعان ما يصبح هذا الرأى، أو تصبح تلك العاطفة الظاهرة بارزة للجماهير، فيتيسر الإيحاء بها إلى عقولهم، أو نفثها في قلوبهم. أما في البلاد الديمقراطية، فليس ثمة شىء غير القوة الحاكمة وحدها يستطيع أن يكون في مركز يحول له أن يسلك مثل هذا المسلك. ولا يشق علينا أن ندرك أن عمل هذه الحكومة سيكون دائماً ناقصاً وأحياناً كثيرة خطراً. فأهلية الحكومة للعمل على استبقاء الآراء والعواطف حية، وللعمل على تجديدها ونشرها وتداولها باستمرار بين شعب عظيم - هذه الأهلية ليست بأكثر من أهليتها لإدارة المشروعات الصناعية الإنتاجية في البلاد. فما أن تحاول حكومة أن تتجاوز دائرة عملها السياسى، وتقحم نفسها في مثل هذا العمل الجديد حتى تجد نفسها تمارس استبداداً غشوماً لا يطاق، ولو فعلت ذلك على غير وعى منها، ذلك لأنه لا يسع الحكومة إلا أن تفرض على الناس قواعد محددة دقيقة؛ تفرض القواعد والآراء التى تأخذ هى بها، وتفذهها بكل صرامة وشدة، وليس من الهين أبداً التمييز بين ماتسديه من نصائح أو ماتصدره من أوامر. هذا، وإن الحالة لتكون أسوأ من ذلك، إن كانت (الحكومة) تعتقد حقاً أن من مصلحتها أن تحول دون انتشار أى آراء؛ فإنها ستقف عندئذ مكتوفة الأيدى جامدة لاتتحرك تنوء تحت عبء من الخمول فرضته على نفسها فأبظها وأدها. فينبغى ألا تكون الحكومة إذن هى وحدها دون غيرها القوى النشيطة التى تعمل في البلاد؛ فالجماعات في الأمم الديمقراطية يجب أن تحمل محل الأفراد الأقوياء الذين أودى بهم مبدأ المساواة في الأحوال الاجتماعية.

وعندما تأخذ فئة من المواطنين في الولايات المتحدة برأى ما، أو عندما تتكون فيهم عاطفة معينة ويريدون أن ينشروا هذا الرأى في العالم، أو يدعوا إلى هذه العاطفة فيه كله، عمدوا إلى الاتصال بعضهم ببعض، وما أن يعرف كل منهم اتجاه الآخر، حتى يتحدوا ويؤلفوا جماعة منهم، وبذلك لا يكونون بعد اتحادهم هذا أفراداً منعزلين متفرقين، بل يصبحون قوة، ندركها من بعيد، وتصبح أفعالهم مثلاً يحتذى. وتسترعى أقوالهم الانتباه والإنصات. فعندما سمعت لأول مرة في الولايات المتحدة أن مائة ألف رجل تعهدوا علناً بأن يجرموا على أنفسهم تناول الخمر، خيل إلى أن الأمر أقرب إلى المزاح منه إلى الجد، ولم أدرك على الفور السبب الذى منع هؤلاء المواطنين الذين امتنعوا عن شرب الخمر من أن يجتزئوا بشرب الماء القراح وهم جلوس في بيوتهم حول مواقدهم، وبأخرة أدركت أن المائة ألف مواطن هؤلاء قد راعهم مارأوا من انتشار السكر حولهم، فعددوا عزمهم على مناصرة تحريم الخمر<sup>(١)</sup>، وسلكوا الطريق نفسه الذى كان يسلكه رجل من أبناء الطبقة

(١) صدر قانون بتحريم شرب الخمر في أمريكا سنة ١٩١٩ وظل هذا التحريم قائماً حتى ١٩٣٣.

العالية اختار أن يتخذ له زياً بسيطاً كل البساطة حتى يوحى إلى أفراد الطبقات الدنيا بضرورة احتقار الترف والكماليات .

ولو أن هؤلاء المائة ألف أمريكي كانوا يعيشون في فرنسا لطالب كل واحد منهم الحكومة بأن تراقب الخال العامة في أنحاء البلاد كافة . فليس شيء جدير في نظري بأن يسترعى اهتمامنا مثل الجمعيات الأدبية والأخلاقية في أمريكا . ولا شك في أن ما فيها من الجمعيات السياسية والصناعية يستلفت النظر بقوة، أما الجمعيات الأخرى فقد تند عن الملاحظة؛ وإن نحن وقفنا عليها لم نفهمها حق الفهم، لأننا لم نر من قبل شيئاً يشبهها . ومن ذلك فعلينا أن نسلم بأنها لازمة للشعب الأمريكي لزوم الجماعات السياسية والصناعية - ولعلها ألزم له منها؛ فقد تجدد في البلاد الديمقراطية أن علم الاجتماع يقوم على رأس العلوم كلها، فتقدمها يتوقف على تقدمه .

ومن بين القوانين التي تحكم المجتمعات البشرية، قانون يبدو أدق من سائرها وأوضح، فكى يظل الناس متحضرين، أو إن هم أرادوا أن يكونوا كذلك، يجب أن ينمو فيهم فن تكوين الجمعيات ويترقى هذا حتى يكتمل بنفس النسبة التي يزداد بها مبدأ المساواة في الأحوال الاجتماعية ويترقى بينهم .

## الفصل السادس

### صلة الجمعيات العامة بالصحف

إذا لم يعد الناس مرتبطين بعضهم ببعض بصلات وثيقة دائمة، تعذر إيجاد أى تعاون بين عدد كبير منهم، اللهم إلا إذا استطعنا أن نقنع كل امرئ ممن لا بد لهم من هذا التعاون، بأن مصالحه الخاصة تضطره إلى أن يتحد مع غيره، بإرادته واختياره، وبضرورة أن يضم جهوده إلى جهود الآخرين كلهم. وهذا أمر لا يتم عادة، وعلى صورة ملائمة مريحة إلا بوساطة صحيفة يومية. فليس شيء غير الصحف يستطيع أن يلقى بفكرة معينة في عقول آلاف من الناس في وقت واحد. فالصحيفة مستشار ناصح لا يحتاج أحد أن ينجح إليه ليستمد الرأي منه، بل يأتيك من تلقاء نفسه. ويتحدث كل يوم في إنجاز عن المصلحة العامة، دون أن يعطلك عن مواصلة السير في شئونك الخاصة.

ومن ثم كانت الحاجة إلى الصحف تزداد بازدياد المساواة بين الناس وبازدياد الخوف من «الفردية». فمن يذهب إلى أن عمل الصحف لا يعدو حماية الحرية، يقلل من شأنها؛ فالصحف تعمل على صيانة الحضارة. ولست أنكر أنها كثيراً ما تدفع بالمواطنين في البلاد الديمقراطية إلى أن يتفقا ويشاركوا في مشروعات خطيرة لم تزل حقها من الدرس والتخطيط، ولكن إذا لم يكن ثم صحف انعدم كل نشاط جماعي؛ فما ينجم عن الصحف من شر أقل بكثير مما تصلحه هي من شرور.

وليس عمل الصحيفة مقصوراً على الإيحاء بغرض معين إلى عدد كبير من الناس، بل إنها تزودهم بالوسائل اللازمة للتعاون على إنجاز المشروعات التي يكون قد ارتأها كل منهم على حدة. فكبار المواطنين الذين يعيشون في بلاد أرسقراطية يعرف كل منهم الآخر من بعيد، فإن شاءوا أن يوحدوا قواهم، اتجه كل منهم إلى الآخر، وخلفه جمهور كبير من أتباعه. والأمر على العكس من ذلك في البلاد الديمقراطية؛ فكثيراً ما يحدث فيها أن عدداً كبيراً من الناس الذين يرغبون في الاشتراك معاً في عمل ما، أو كانوا محتاجين إليه لا يستطيعون تحقيق ذلك. فهم، لصغر شأنهم، وضياعتهم وسط الجماهير، لا يرون بعضهم بعضاً، ولا يدري الواحد منهم أين يجد الآخر. وهنا يبدأ دور الصحيفة، فعرض عليهم جميعاً الفكرة أو العاطفة التي طرأت على بال كل منهم في وقت واحد، ولكل منهم

على حدة؛ فينجهون جميعاً من فورهم نحو هذا النبراس، وينتهي الأمر بتلك العقول التي ظلت أمدأ طويلاً حائرة في الظلام يبحث كل منها عن الآخر، أن تلتقى. فالصحيفة هي التي تجمع شملهم، وتظل ضرورية لهم كي يظلوا متحدين.

وكي يكون لأية جمعية منشأة في شعب ديمقراطي قوة ما، ينبغي أن يكون أعضاؤها كثيرين، وبذلك يكونون مبعثرين في أرجاء عدة، كل منهم مستقر في البقعة التي يعيش فيها، لا يستطيع أن يرحها بسبب ضآلة دخله، وكثرة الجهود الصغيرة التي لا بد له من أن يبذلها للحصول على هذا الدخل القليل. فلا بد إذن من وجود وسيلة تمكن لكل منهم أن يتصل بالآخر من غير أن يراه، وأن يعملوا جميعاً متفقين في اتجاه واحد دون أن يلتقوا أو يجتمعوا بعضهم ببعض. فليس ثمة جماعة ديمقراطية إذن تستطيع أن تستغنى عن الصحف.

مما تقدم، يتبين لنا أن بين الجمعيات العامة والصحف علاقة ضرورية. فالصحف تخلق الجماعات، والجماعات تخلق الصحف. وإن صح ما نقوله من أن الجماعات هذه تزداد عدداً كلما تساوت أحوال الناس الاجتماعية، صح كذلك القول بأن عدد الصحف سيزداد بازدياد الجماعات. فلا غرو أن وجدنا في أمريكا أكبر عدد من الصحف، وأكبر عدد من الجمعيات في وقت واحد.

وتؤدي بنا هذه الصلة التي بين عدد الصحف وعدد الجمعيات، إلى استكشاف صلة أخرى بين حالة الصحافة الدورية وبين شكل الإدارة الدائم في البلاد؛ فهي تدلنا على أن عدد الصحف يزيد أو يقل في الشعب الديمقراطي بحسب مدى مركزية الإدارة فيه. إذ لا يمكن أن يعهد في الأمم الديمقراطية بممارسة السلطات المحلية إلى كبار المواطنين في القرية أو في المركز، كما هي الحال في البلاد الأرستقراطية. فيجب أن تلغى إذن هذه السلطات، أو يعهد بها إلى عدد كبير جداً من الناس؛ وعندئذ يكون هؤلاء جمعية قانونية دائمة لإدارة جزء من البلاد، وهم بحاجة، لاشك، إلى جريدة تحمل إليهم كل يوم، وسط مشكلاتهم الصغيرة طائفة من الأنباء عن حالتهم العامة. وكلما ازداد عدد السلطات المحلية، ازداد عدد الأشخاص الذين يعهد إليهم القانون بهذه السلطات. وإذا كان الناس يشعرون بهذه الحاجة في كل لحظة، ازداد عدد الصحف واتسع انتشارها.

ولتقسيم السلطة الإدارية تقسيماً كبيراً غير عادي، صلة كبيرة بتزايد عدد الصحف الهائل في أمريكا، أكثر مما للحرية السياسية الكبرى، ومن استقلال الصحافة المطلق في البلاد. فإن كان ما لجميع السكان في الولايات المتحدة من حق الانتخاب، مقصوراً على انتخاب ممثلهم في الكونجرس، لاحتاجوا إلى عدد قليل كل القلة من الجرائد، لأنهم لا يكونون بحاجة إلى أن يعملوا معاً إلا في الظروف البالغة الأهمية، وهي ظروف نادرة كما لا يخفى. ولكن قامت في المجتمع القومي الكبير مجتمعات في كل مقاطعة ومدينة، وفي كل قرية من القرى، مجتمعات صغيرة يقرأها القانون، وترمي كلها إلى الاضطلاع بالإدارة

الغلية؛ وبذلك صارت قوانين البلاد تحمل كل مواطن أمريكي على أن يتعاون في كل يوم من أيام حياته مع نفر من أمثاله المواطنين ويشترك معهم في تحقيق غرض من الأغراض؛ ولا يهتفى أن كل واحد منهم بحاجة إلى جريدة تحيطه علماً بما يعمله الآخرون .

وفي رأى أن عدد الصحف عند الشعب الديمقراطي الذى ليس له مجلس قومى يمثله، ولكن له عدد كبير من السلطات الغلية، سيكون في النهاية أكثر مما عند أمة تحكمها إدارة مركزية، ومجلس تشريعى منتخب . وخير تفسير أراه لانتشار الصحف في الولايات المتحدة ذلك الانتشار الكبير، هو وجود تلك الجرائد اليومية الواسعة، مع وجود الحريات الغلية على اختلاف أنواعها .

شاع في كل من فرنسا وإنجلترا رأى يقول بأن انتشار الصحف يزداد زيادة لاحد لها إذا ما أزيلت الضرائب المفروضة عليها؛ وهو رأى فيه إسراف كبير في تقدير نتائج هذا الإصلاح، فمقدار ما يوزع من الصحف يزداد، لاعلى أساس رخص السعر الذى تباع به، بل على أساس مدى الحاجة التى يشعر بها عدد كبير من الناس للاتصال بعضهم ببعض .

هذا، وإنى لأعزو تزايد تأثير الصحافة اليومية إلى أسباب أعم كثيراً مما يذكره الناس عادة لتفسير هذا التأثير . فلا يمكن أن تظل الصحيفة قائمة إلا إذا كانت تعبر بما تنشره عن مبادئ أو عواطف يشترك في الأخذ بها عدد كبير من الناس . فالصحيفة تمثل دائماً جماعة إذن، أعضاؤها القراء الذين يداومون على مطالعتها . وقد تكون هذه الجماعة محدودة أو محصورة، أو كثيرة الأعضاء، ولكن بقاء الصحيفة حية لاثموت هو وحده الدليل على أن بذور هذه الجماعة على الأقل موجودة في أذهان قرائها .

ويفضى بنا هذا إلى فكرة أخيرة أختتم بها هذا الفصل . فكلما تساوت أحوال الناس الاجتماعية وازداد كل فرد منهم ضعفاً، سهل استسلامهم لتيار الجماعة، وشق عليهم أن يظلوا متمسكين برأى أباه هذه الجماعة . فالصحيفة تمثل جماعة، بل الأخرى بنا أن نقول أنها تخاطب كل قارئ من قرائها باسم الجماعة كلها، وأنها تؤثر فيهم بحسب مدى ضعف كل فرد منهم؛ ومن ثم صارت قوة الصحافة تزداد كلما تساوت أحوال الناس الاجتماعية .

## الفصل السابع

### صلة الجمعيات المدنية بالجمعيات السياسية

ليس في العالم كله غير دولة واحدة يستخدم المواطنون فيها ما هم من حرية مطلقة في التجمع لأغراض السياسة؛ وهذه الدولة هي الوحيدة في العالم التي يمارس فيها المواطنون باستمرار في الحياة المدنية حقهم في حرية الاجتماع، فاستطاعوا بذلك أن يحصلوا على جميع المزايا التي يمكن أن تقدمها لهم الحضارة عن طريق استعمالهم هذا الحق.

فمن النادر أن تقوم جمعيات مدنية في بلاد يحظر فيها الجمعيات السياسية، وليس من المحتمل أن يجيء ذلك نتيجة المصادفة، بل ينبغي لنا أن نستنتج منه وجود صلة طبيعية، وربما كانت ضرورية كذلك، بين هذين النوعين من الجمعيات.

فقد يحدث أن يكون لبعض الناس مصلحة مشتركة في أمر ما، وقد يكون ذلك الأمر مشروعاً تجارياً، أو مغامرة في ميدان الصناعة؛ فيجتمع هؤلاء الناس بعضهم ببعض ويتحدثون، ثم لا يلبثون أن يألفوا مبدأ تكوين الجمعيات هذا شيئاً فشيئاً. وكلما ازداد عدد المشروعات الصغار ازداد الناس اكتساباً للقدرة على التعاون والاضطلاع معاً بالمشروعات الكبرى، حتى ولو جاء ذلك الاكتساب على غير تفتن منهم.

وهكذا تيسر «الجماعات» المدنية السبيل إلى قيام «الجماعات» السياسية؛ ومن جهة أخرى تقوى هذه الجماعات السياسية الجماعات التي ترمى إلى أغراض مدنية وترقيها بشكل غريب، فيخيل لكل إنسان إذن أن في استطاعته، إذا اقتضى الأمر، أن يسد بنفسه كل ما يحتاج إليه في الحياة المدنية؛ أما في الحياة السياسية فليس يخطر شيء من هذا ببال أحد. فكل الشعب لديه خبرة بالحياة العامة لا بد أن تمر بخواطر أفراده فكرة تكوين الجمعيات والرغبة في التكتل. وأيا كان ذلك الفتور الطبيعي الذي قد يعوق الناس عن أن يتعاونوا ويعملوا معاً متضافرين، فهم على استعداد دائماً لأن يجتمعوا إذا كان اجتماعهم هذا مما تقتضيه مصلحة حزب من الأحزاب. وهكذا تعمل الحياة السياسية على استئالة الناس إلى تكوين «الجمعيات» وإلى ممارستها وتعميمها، وترغيبهم في الاتحاد، وتعلمهم طرق الاجتماع والتكتل؛ ولولا ذلك لظلوا يعيشون في عزلة منفصلين بعضهم عن بعض. فالسياسة لا تؤدي إلى جماعات كثيرة فحسب، بل تؤدي كذلك إلى قيام جماعات

ضخام كل الضخامة . وقلما يحدث في الحياة المدنية أن تدفع مصلحة واحدة عدداً كبيراً من الناس لأن يتضافروا ويعملوا معاً ، لأن إيجاد مثل هذه المصلحة يستلزم مهارة بالغة . أما في ميدان السياسة فالفرص كبيرة وتسنح كل يوم . هذا ولا تتجلى قيمة مبدأ حق الاجتماع إلا في الجماعات الكبيرة وحدها دون سواها . إذ لا يستطيع المواطنون ، من حيث هم أفراد ضعاف أن يتصوروا سلفاً وبشكل واضح ، تلك القوة التي يكسبونها من جراء اتحادهم بعضهم مع بعض ؛ بل إن هذه القوة يجب أن تكشف لهم وتوضح حتى يدركوها حق الإدراك . ومن ثم كانت تعبئة جمهور من الناس لغرض عام ، أسهل في الغالب من جمع بضعة أشخاص لهذا الغرض نفسه . فألف مواطن لا يستطيعون أن يدركوا المصلحة التي تعود عليهم من الاجتماع بعضهم ببعض . على حين يدركها عشرات الآلاف منهم تمام الإدراك . ولا يخفى أن الناس لا يجتمعون بعضهم ببعض في الأمور السياسية إلا من أجل القيام بمشروعات ضخمة . فهم باستخدامهم مبدأ حق الاجتماع في الشئون العامة يتعلمون بأسلوب عملي ، أن مصلحتهم أن يتعاونوا كذلك في الأمور الأقل شأناً . فالجمعيات السياسية تجذب عدداً من الأفراد في وقت واحد من دوائرهم الخاصة بهم ؛ ومهما فصلتهم فروق السن والعقل والثروة بعضهم عن بعض ، فإنها تغريهم بالاتصال وتيسره لهم ، حتى إذا ما اجتمعوا مرة اجتمعوا بعدها مرات .

ويستطيع الناس أن يشاركوا في عدة شركات مدنية ، دون أن يخاطروا بشيء مما يملكون ؛ ويتجلى ذلك واضحاً في الشركات الصناعية والتجارية . فعندما تكون خبرة الناس بشئون الجماعات قليلة ويجهلون قواعدها العامة ، يخشون أن يكلفهم الحصول على الخبرة المنشودة أثمناً عالية ، عندما يجتمعون بهذه الطريقة لأول مرة ، فلا غرو إن أثروا أن يجرموا أنفسهم أداة فعالة من أدوات النجاح ، على أن يغامروا بالتعرض لما يترتب على استخدام هذه الأداة من أخطار . ومع ذلك فإن خوفهم هذا ليقبل عندما يفكرون في الانضمام إلى جماعات سياسية ، لأنه في نظرهم أقل خطراً حيث لا يغامرون بشيء من المال . هذا ، وأنهم لا يستطيعون أن يلتحقوا بهذه «الجماعات» زمناً من غير أن يتفقوا على طريقة المحافظة على النظام قائماً بين جمهور كبير من الناس ، وعلى الوسائل التي تمكنهم من التقدم و انسجام وفي نظام ، للوصول إلى تحقيق هذا الغرض نفسه . وبذلك يتعلمون أن يخضعوا لإرادتهم لإرادة الجميع ؛ وأن يجعلوا ما يذلونه من جهود خاضعة للمصلحة العامة . وهذه كلها أمور لاتقل ضرورة الإلمام بها في الجمعيات السياسية عنها في الجمعيات المدنية ؛ ومن ثم صح لنا اعتبار الجمعيات السياسية أشبه بمدارس مجانية ضخمة يلتحق بها أعضاء الشعب كي يدرسوا نظرية إدارة الجماعات .

وحتى إذا كانت الجماعات السياسية لاتساعد مباشرة على تقدم الجماعات المدنية فالقضاء على الأروى يضعف الثانية . فإذا ما عجز المواطنون عن أن يجتمعوا علناً إلا في حالات معينة ولأغراض معينة ، عدوا مثل هذه الاجتماعات غريبة نادرة الحدوث ،

فلا يعودون بحفلون بها ولا حتى يفكرون فيها . أما إن رخص لهم أن يجتمعوا بحرية لأى غرض يشاءون ، نظروا إلى الاجتماع العام على أنه شيء عام ، وأنه بشكل ما ، الوسيلة الوحيدة التى يستخدمها الناس لتحقيق ما ينشدون تحقيقه من مختلف الأغراض . وسرعان ما توقظ كل حاجة جديدة هذه الفكرة ، وعندئذ يصبح فن الاجتماع ، كما ذكرت من قبل ، الفن الأساسى ، مصدر كل عمل ، فيدرسه الجميع ويطبّقونه .

أما إذا حرمت على الناس بعض أنواع الجمعيات ، ورخص لهم بأخرى ، تعذر عليهم أن يفرقوا سلفاً بين الأولى والثانية ، وفى حالة الشك هذه يمتنعون عن الالتحاق بأيهما امتناعاً تاماً ، ويتكون شبه رأى عام يجعل أى جمعية ، مهما كان نوعها ، عملاً جريئاً ، بل تكاد تعد منشأة غير مشروعة .

فمن الخطأ إذن أن نظن أن روح التجمع إذا ما قمعت فى ناحية واحدة معينة ستظل مع ذلك نشيطة النشاط نفسه فى سائر النواحي الأخرى ، وأنه إذا ما سمح للناس بأن يشتركوا معاً فى القيام بطائفة من المشروعات ، حفزهم ذلك على أن يتحمسوا لكل ضروب التجمع وأقبلوا عليها كل الإقبال . فإذا سمح للمواطنين أن يجتمعوا لأغراض شتى واعتادوا هذا ، فسيسارعون إلى التجمع من أجل الأمور الصغيرة ، مسارعتهم إلى التجمع من أجل الشئون الكبرى العامة . أما إذا لم يسمح لهم بالتجمع إلا لأغراض صغيرة فحسب ، فإنهم لا يميلون إلى مثل هذه التجمعات ، ولا تكون لهم القدرة على عقدها . فمن العبث أن ندعهم أحراراً طلقاء ليستمروا فى أعمالهم وفى مشروعاتهم التجارية والصناعية الخاصة على أساس جماعى ، إذ يخشى من أنهم لا يحفلون بأن يستفيدوا من الحقوق التى منحوها . فبعد أن تكون قد استفدت قوتك فى جهود لا طائل تحتها ، تمنع التجمعات المحظورة ، تستولى عليك الدهشة من عجزك عن إقناع الناس بتأليف تلك الجماعات المسموح بها التى تعمل أنت على تشجيعها .

لست أقول بأن الجمعيات المدنية ستختفى من كل بلد حرم عليه عقد الاجتماعات السياسية . فالناس لا يمكنهم أن يعيشوا مجتمعين من غير تعاون على الاضطلاع بمشروعات عامة . ولكنى أقول أن الجمعيات المدنية ستكون فى مثل هذا البلد قليلة العدد دائماً ، ضعيفة التخطيط ، سيئة الإدارة ، وأن الناس سيمتنعون عن أن يضعوا خططاً واسعة ، أو أنهم سيفشلون فيها إن هم حاولوا أن ينفذوها .

وهذا بالطبع يجعلنى أرى أن حرية التجمع لأغراض سياسية لا خطر منها على الهدوء العام ، كما توهم الناس . وأنها بعد أن تكون قد هزت المجتمع وقتاً ما ، قد تؤدى فى النهاية إلى تقويته وتوطيد دعائمه ، هذا ، ويصح لنا أن نعد الجمعيات السياسية فى البلاد الديمقراطية الأشخاص المعنوية الوحيدة القوية التى تطمح إلى تولى مناصب الحكم فى الدولة ، ( ذلك إن جاز لنا هذا التعبير ) . ومن ثم كانت الحكومات فى عصرنا تنظر إلى مثل

هذه الجمعيات مثلما كان الملوك في العصور الوسطى ينظرون إلى كبار أتباعهم الإقطاعيين . فقد كانوا يضمنون لهم شيئاً من الحقد والكراهية الفطرية، ويكافحونهم في كل فرصة تتاح لهم، ولكنهم كانوا، على العكس من ذلك، يكونون الخير وحسن النية للجمعيات المدنية؛ فهم لا يلبثون أن يستكشفوا أن هذه الجمعيات بدلاً من أن توجه عقول الناس إلى الشئون العامة تبعدهم عن التفكير فيها، وأنها كلما ازدادت في أن تشغلهم بأمور لا تحقق إلا بتوافر الهدوء والسلام في البلاد، عاقتهم عن القيام بأية ثورة أو انقلاب . ولكن فات هذه الحكومات أن تدرك أن الجمعيات السياسية تعاون كل المعاونة على الاستكثار من الجمعيات ذات الصيغة المدنية؛ وتعمل على تيسير قيامها، وأنها بتجنبها داء خطيراً قد حرمت نفسها علاجاً ناجحاً .

عندما نشاهد الأمريكيين ينشئون في حرية وباستمرار جمعيات شتى تهدف إلى ترقية مبدأ سياسى، أو إلى رفع شخص معين إلى رتبة السياسة في الشئون العامة، أو إلى انتزاع السلطة من آخر، يشق علينا أن ندرك أن أناساً مستقلين هذا الاستقلال لا يسيئون استخدام ما لديهم من الحرية باستمرار . أما إذا نظرنا إلى الشركات التجارية التي لا تحصى في الولايات المتحدة، وأدركنا أن الأمريكيين مشغولون باستمرار بتنفيذ خطة هامة وشاقة، يمكن أن تعطل ويشيع فيها الاضطراب لحدوث أقل ثورة، أدركنا على الفور السبب في أن شعباً منهمكاً في أعماله وأشغاله هذا الانهماك، لا يغيره شيء بالعمل على إتعاب الدولة، أو على تعكير ذلك الأمن العام، الذي يفيد منه جميع أفرادها الشيء الكبير .

فهل يكفي أن نلاحظ هذه الأشياء فرادى، كل شيء منها على حدة، أم يقتضينا الواجب أن نلاحظ الصلة الحفية التي تربطها كلها بعضها ببعض؟ إن الأمريكيين على اختلاف أحوالهم، وعقولهم، وأعمارهم ليزدادون كل يوم في تجمعاتهم السياسية ميلاً عاماً إلى تكوين الجمعيات والاستفادة منها . فهم يجتمعون معاً بأعداد كبيرة فيتحدثون، ويصغى كل منهم إلى الآخر، ويشجعون بعضهم البعض على القيام بمشروعات شتى مختلفة الأنواع، ثم هم ينقلون فيما بعد إلى الحياة المدنية الأفكار التي اكتسبها بهذه الطريقة، ويستخدمونها في شتى النواحي والأغراض . فمن جراء التمتع بحرية خطيرة، عرف الأمريكيون فن التقليل من أخطار هذه الحرية وجعلها أقل ضرراً .

فلو أننا اخترنا لحظة معينة في حياة أمة من الأمم، لكان من اليسير علينا أن نبرهن أن الجمعيات السياسية تعكر صفو الدولة، وتشل الإنتاج الصناعى فيها، أما إذا أخذنا حياة الشعب كلها جملة، فقد يكون من السهل أن نبرهن على أن الجمعيات السياسية تعاون على ازدهار المجتمع كله وعلى إقرار الهدوء بين مواطنيه .

سبق أن ذكرت في الجزء الأول من هذا الكتاب : « يجب ألا نخلط أبداً بين الحرية المطلقة في عقد الجمعيات السياسية وبين حرية الصحافة؛ فأحدهما أقل ضرورة من الأخرى وأشد منها خطراً في الوقت نفسه . وقد يحدث أن تحصرها أمة ما في نطاق معين،

محدود من غير أن تفقد شيئاً من سيادتها على نفسها، بل إنها قد تضطر أحياناً إلى أن تفعل ذلك لتحافظ على سيادتها قائمة» ثم بعد ذلك بقليل، قلت «لا ينكر أحد أن الحرية المطلقة للجمعيات السياسية تعد من بين سائر الحريات، الحرية التي يستغرق فيها الشعب أطول مدة ليتعلم طرق ممارستها؛ فإن هي لم تلق به بين برائن الفوضى فعلاً زادت من احتمال وقوعه في هذه الكارثة لأنها تظل تهدده باستمرار في كل مكان» وعلى ذلك فليس من رأيي أن الأمة تكون حرة دائماً في أن تخول لمواطنيها الحق المطلق في تكوين الجمعيات لأغراض سياسية؛ وإني ليساورني الشك في إن كان من الصواب والحكمة، في أي عصر وفي أي بلد، ألا نضع حدوداً تقيد حرية التجمع» .

يقولون إن الأمة لا تستطيع أن تحافظ على السلام في البلاد، وتحمل الناس على مراعاة القوانين واحترامها. ولا هي تستطيع أن تقيم حكومة ثابتة، إن لم تحصر حق التجمع في حدود ضيقة. إن لهذه النعم قيمتها الكبرى لاشك؛ وأستطيع أن أتصور أن الأمة لترضى بأن تفرض على نفسها قيوداً قاسية، وإن كانت مؤقتة، كي تحصل على هذه النعم، وتحافظ عليها؛ ومع ذلك فمن الخير لها أن تعرف على وجه التحديد الثمن الذي ستدفعه نظيرها. قد أفهم أنه من الخير أن تبتز ساعد رجل، إن كان في هذا البتر إنقاذ حياته؛ ولكنه من السخرية أن يؤكد لي أحد بأن هذا الرجل سيظل مع ذلك ماهراً، كما كان قبل أن يفقد ساعده .

## الفصل الثامن

# الأمريكيون يقاومون الفردية بمبدأ المصلحة الشخصية بمعناه الصحيح

عندما كانت هذه الدنيا في أيدي قلة من الأفراد من ذوى الثراء الواسع والجاه العريض، كان هؤلاء الأشخاص الأغنياء الأقوياء متعلقين بفكرة سامية عن واجبات الإنسان، وكان يسهم أن يقولوا عنه إنه لخليق به أن ينكر ذاته، وأن يعمل الخير دون أن يطمع في ثواب، كما هو شأن الله. تلك كانت الآراء الأساسية الدائنة بين الناس في ذاك الزمن عن الأمور الأخلاقية<sup>(١)</sup>.

وإني لساورني الشك في إن كان الناس في العصر الوسيط أكثر استمساكاً بالفضائل منهم في غيره من العصور؛ ولكنهم كانوا يكثرون من الكلام عن جمال الفضيلة؛ أما فوائدها فلم يكونوا يتحدثون عنها إلا في الخفاء. ولما كان الخيال لا يرتفع في تخليقاته حتى يبلغ مدى هذه الأجواز السامية، وكانت أفكار كل امرئ متركزة في نفسه وحده، فزع الأخلاقيون من فكرة التضحية بالذات هذه، ولم يعودوا يجربون على طرحها على العقل البشرى واكتفوا بالبحث عما إن كانت مصلحة كل فرد من أفراد المجتمع الشخصية، في أن يعمل لما فيه خير الجميع؛ حتى إذا ما عثروا بنقطة تلتقى فيها المصلحة الشخصية بمصلحة الجماعة، وتدجج فيها، تلهفوا على إبرازها جلية للناس. وكثرت الملاحظات التي من هذا القبيل شيئاً فشيئاً، حتى أصبح ما كان مجرد ملاحظة مفردة، مذهباً عاماً، وصار الناس يعتقدون أن الإنسان إنما يحترم نفسه، بينما يحترم بنى جنسه، وأن مصلحته الشخصية في أن يعمل الخير للناس أجمعين<sup>(٢)</sup>.

هذا، وقد سبق أن أوضحت في مواضع عدة من هذا الكتاب الوسائل التي تمكن بها الأمريكيون في معظم الأحوال من أن يجمعوا بين رفاهيتهم الشخصية ورفاهية سائر

(١) من هؤلاء الذين يشير إليهم المؤلف بانترى؟ لعله يقصد جماعة الرواقيين من الفلاسفة أمثال الإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس (١٢١ - ١٨٠ ق.م.)

(٢) لاشك في أن المؤلف قد اطلع على كتابات سان بيير l'abbé de Saint Pierre رائد من نادوا بالسلام الدائم في العالم. والذي كان يضع في رأس كل خطاب من خطابه، لجنة لمن يفعل الخير.

إخوانهم المواطنين؛ أما ما أهدف إليه هنا فشرح تلك القاعدة العامة التي يسرت لهم أن يتوصلوا إلى ذلك. إنا لانكاد نجد أحداً في الولايات المتحدة يتحدث عن جمال الفضيلة، ولكن الأمريكيين يعتقدون مع ذلك أن الفضيلة شيء نافع، ويدللون على نفعها كل يوم؛ فالأخلاقيون عندهم لا يعترفون بأنه يجب على الناس أن يضحوا بأنفسهم في سبيل بنى جنسهم لأنه من النبيل أن يقوم الإنسان بمثل هذه التضحية، ولكنهم يؤكدون لنا في جراءة أن مثل هذه التضحيات لازمة لمن يفرضونها على أنفسهم لزومها لمن تبذل في سبيلهم. فقد أدركوا أن في بلادهم وعصرهم قوة لا قبل لأحد بمقاومتها جعلت كلاً منهم يفكر في نفسه وفي مصلحته أولاً. وإن فقدوا كل أمل في وقف هذه القوة عن عملها هذا نقلوا تفكيرهم شطر توجيهها. فهم لا ينكرون أن لكل إنسان الحق في أن يعنى بمصالحه الشخصية، ولكنهم يحاولون أن يبرهنوا لنا أن مصلحة كل إنسان تقتضيه أن يتحلى بالفضيلة فيكون أميناً مخلصاً. هذا، ولست أنوى الدخول هنا في الأسباب التي يدلون بها لأن ذلك يبعدني عن موضوعي، وحسبي أن أقول إنهم أقنعوا مواطنيهم بذلك.

قال مونتاني Montaigne<sup>(١)</sup> من زمن طويل « إن لم أسلك الطريق المستقيم من أجل استقامته فقد وجب على أن أسلكه لأن الخبرة علمتني انه سيكون في النهاية خير الطرق وأفيدها ». فليس مبدأ المصلحة الشخصية بمعناه الصحيح بالأمر الجديد، ولكنه أصبح عند الأمريكيين في عصرنا أمراً مقبولاً يرضونه أجمعين، فذاع بينهم كل الذبوع. فلا غرو أن وجدناه بارزاً في كل ما يصدر عنهم من أفعال، وصرنا نلاحظه في كل ما يتلفظون به من أقوال. وكثيراً ما يؤكد الفقير بقدر ما يؤكد الغنى. أما في أوروبا فبدأ المصلحة الشخصية هذا أغلظ وأخشن مما هو في أمريكا، ولكنه في الوقت نفسه أقل انتشاراً، والناس فيها أقل صراحة في اعترافهم به. وما زال الناس في فرنسا يتظاهرون باستمرار بأنهم ينكرون ذواتهم إنكاراً عظيماً حتى لم يعودوا يشعرون به في الواقع.

وعلى النقيض من ذلك نجد الأمريكيين مغرمين بتأويل معظم أفعالهم على أساس من مبدأ المصلحة الشخصية بمعناه الصحيح، فيوضحون لنا في سرور واعتباط أن نظرتهم إلى مصلحتهم الشخصية هذه نظرة مستتيرة تدفعهم باستمرار إلى التعاون بعضهم مع بعض، كما تدعوهم إلى التضحية راضين مختارين بجزء من وقتهم ومن أموالهم في سبيل مصلحة الدولة. إنهم من هذه الوجهة يظلمون أنفسهم على ما أرى. فالتناس في الولايات المتحدة شأنهم شأن غيرهم في البلاد الأخرى يبدو أنهم يستسلمون للدوافع الفطرية التلقائية، ولكن الأمريكيين ينذر أن يسلموا بأنهم يخضعون للعواطف التي من هذا القبيل، بل يحرصون على أن يكرموا فلسفتهم هذه أكثر ما يكرمون أنفسهم.

(١) مونتاني: ميشيل إكوي الكونت دو مونتاني (١٥٣٣ - ١٥٩٢) أديب فرنسي عاش أكثر حياته في مدينة بوردو؛ وعنى بكتابة المقالات، وأهم في كثير منها بالنواحي الأخلاقية. وتقوم شهرته على مجموعة مقالاته هذه التي عالج فيها موضوعات شتى.

وربما كان الأحرى بى أن أقف هنا ، ولا أبدى رأى فيما قد ذكرت توا ، فأحكم له أو عليه ؛ لأن صعوبة الموضوع الكبيرة تنهض عذراً لى ، ومع ذلك فلن أستغل هذه الصعوبة ، بل أوثر أن أمكن القارئ من أن يدرك غرضى الذى أرمى إليه ، إدراكاً واضحاً ، ومن أن يرفض مسابرتى فى رأى هذا ، على أن أتركه معلقاً .

فمبدأ المصلحة الشخصية هذا ، بصورته الصحيحة ، ليس بالمبدأ السامى ولكنه مبدأ واضح وأكيد ؛ فهو لا يهدف إلى أغراض عظيمة ، ولكنه يبلغ فى سهولة كل ما يهدف إليه ؛ وفهم هذا المبدأ ميسور ؛ فهو فى متناول إدراك الناس كلهم على اختلاف قدراتهم ؛ فلا غرو أن استطاع كل امرئ أن يأخذ به ويحافظ عليه فى غير مشقة . فمن أجل اتفاهه الرائع مع الضعف البشرى استطاع أن يسيطر على الناس سيطرة كبيرة فى يسر وسهولة ، وليست سيطرته هذه بالموافقة العابرة ، مادام يكف مصلحة شخصية بأخرى مثلها ، ويستخدم فى توجيه لشهوات الناس نفس الحوافز التى تستثيرها وتحركها .

لا يؤدى هذا المبدأ إلى القيام بتضحيات كبيرة ، ولكنه يوحى ببذل تضحيات يومية صغيرة ؛ فهو غير كاف وحده ليحعل الإنسان فاضلاً ، ولكنه يدرج جمهوراً كبيراً من المواطنين على مراعاة عادات الاعتدال ، والنظام ، وبعد النظر وضبط النفس . فإن كان لا يؤدى إلى الفضيلة مباشرة عن طريق الإرادة ، فإنه يقرب الناس منها عن طريق توجيه عاداتهم بصورة غير محسوسة . فإن سيطر هذا المبدأ (مبدأ المنفعة الشخصية) على العالم الأخلاقى كله ، أصبحت الفضائل الكبرى غير العادية نادرة ، ما فى ذلك شك . ولكنى أرى ، أن ضروب الفساد والانحرافات الكبيرة سيقبل شيوعها بين الناس . فإن كان هذا المبدأ يمنع عدداً كبيراً من الناس من أن يسموا على مستوى البشر علواً كبيراً ، فإنه يحول بين عدد كبير من الذين يهبطون دون هذا المستوى ، وبين أن يظلوا فى غيهم سادرين . فإن أنا نظرت إلى هذا المبدأ من حيث بعض الأفراد ، وجدته يهوى بهم إلى دون المستوى المعهود ؛ أما إذا نظرت إلى البشر جملة فإنه يسمو بهم عنه .

لست أخشى أن أقرر أن مبدأ المصلحة الشخصية هذا يبدو لى فى الجملة . أصلح النظريات الفلسفية كلها لاحتياجات أهل العصر ؛ فهو ضمانهم الرئيسى الباق لهم ضد أنفسهم ، وعلى هذا وجب أن تتجه إليه بحوث الأخلاقيين فى عصرنا ؛ وحتى إن رأوه قاصراً أو ناقصاً فإنه يجب أن يتبع على أساس أنه ضرورة .

فليست الأثانية فى فرنسا أشد منها فى أمريكا ؛ فالفرق الوحيد بينهما أنها مستترة فى أمريكا ، وليست كذلك فى فرنسا . فكل أمريكى يعرف متى يضحى بشئ من مصالحه الخاصة فى سبيل إنقاذ سائرها . أما الفرنسيون فييقون أن يبقذوا كل شئ ، وكثيراً ما يفقدون بذلك كل شئ . فكل امرئ حولى يبدو أنه عقد عزمه على أن يعلم معاصريه بلسانه ، وبقدرته ؛ أن كل ما هو نافع لا يمكن أن يكون خطأً ألبتة . أليس فينا رجل رشيد يصطلع بتفهيم الناس أن ما هو صواب وحق يصح أن يكون نافعاً ؟

ليس في العالم قوة تستطيع أن تمنع المساواة المتزايدة في الأحوال الاجتماعية، من أن تدفع العقل البشرى إلى السعى وراء ما هو نافع، ولا أن تمنع كل عضو من أعضاء المجتمع من أن يهتم بشئون نفسه، ومن ثمّ وجب أن نتوقع أن تصبح المصلحة الشخصية أكثر مما كانت في أى وقت من الأوقات الحافز الرئيسى لأفعال الإنسان وسلوكه إن لم تصبح حافزها الأوحده، ومع ذلك فقد بقي علينا أن نرى الطريقة التى يستطيع بها كل إنسان أن يعرف مصلحته الشخصية، فإن كان أعضاء مجتمع ما، يصبحون أكثر جهلاً وغلظة كلما ازدادوا مساواة في أحوالهم الاجتماعية، فمن العسير علينا أن نتكهن بمدى الإفراط الأخرق الذى ستدفعهم إليه أنانيتهم. هذا، وإن أحداً لا يستطيع أن يقول سلفاً، أى عار، وأى بؤس، سيجرونه على أنفسهم مخافة أن يضطروا إلى التضحية بشيء من رفاهيتهم في سبيل بنى جنسهم.

لا أعتقد أن مبدأ المصلحة الشخصية بالشكل الذى تعرفه أمريكا، أمر واضح كل الوضوح من كل نواحيه، ولكنه مع ذلك يتضمن طائفة كبيرة من الحقائق واضحة جلية، حتى لا يسع الناس إلا أن يدركوها لو أنهم كانوا متعلمين، فعلىنا أن ننشر التعليم إذن بين الناس على كل حال، فعصر التضحية بالذات والأخذ بالفضائل التى تعد نزوعات فطرية يمر بسرعة، على حين أن العصر الذى لا يستطيع فيه الحرية ولا السلام العام، ولا النظام الاجتماعى نفسه أن تقوم وتستقر من غير تربية وتعليم، قد أخذ يقترب منا شيئاً .

## الفصل التاسع

# الأمريكيون يطبقون مبدأ المصلحة الشخصية بمعناه الصحيح على الشؤون الدينية

إن كان مبدأ المصلحة الشخصية بمعناه الصحيح لا ينظر إلا إلى هذا العالم الحاضر لكان مبدأ ناقصاً ، فم تضحيات كثيرة لا تجد ثوابها إلا في عالم آخر غير هذا العالم ، وأياً كانت تلك المهارة العقلية التي تتجلى في التدليل على فائدة الفضيلة ، فليس من السهولة في شيء أن تحمل امرأة ، لا يخطر بباله أنه سيموت يوماً ما ، على أن يجيا حياة مستقيمة صالحة .

ومن ثم كان لزاماً علينا أن نستوثق من إمكان التوفيق بين مبدأ المصلحة الشخصية هذا وبين المعتقدات الدينية ، فالفلاسفة الذين يشدون هذا النظام الأخلاق يقولون لنا أن السعادة في هذه الدنيا تقتضى المرء أن يراقب شهواته ، ويكف نفسه عن الإفراط فيها ، وأن السعادة الدائمة لا تدرك إلا بالنزول عن الآف من المتع العابرة ، وأن الإنسان يجب أن يتصر دائماً في جهاده ضد نفسه لكي يحصل على ما فيه منفعة الخاصة ، وكذلك كان مؤسسو الديانات الكبرى يقولون بمثل هذا القول عينه ، والطريق الذي يمشرون به على الإنسان أن يسلكه هو الطريق عينه الذي يشر به هؤلاء الفلاسفة إلا أن الهدف النهائي فيه أبعد مدى . فبدلاً من أن يجعلوا ثواب الإنسان على ما يبذله من التضحيات المفروضة عليه ، في هذه الدنيا وحدها ، جعلوه في الآخرة .

ومع ذلك فلست أرى أن جميع الذين يمارسون الفضيلة مدفوعون إليها بموافز دينية لا يمارسونها إلا بأمل الحصول على الثواب ، فقد صادفت مسيحين غيورين ينسون أنفسهم باستمرار ، كى يعملوا بمزيد من الحماسة على إسعاد بنى جنسهم ؛ وسمعتهم يصرحون أن كل ما فعلوه لم يكن له من غرض إلا الحصول على الثواب في الآخرة ، ولا يسعني إلا أن أظن أنهم إنما يخادعون أنفسهم ويسبون إليها ، إلى لأحرمهم احتراماً عظيماً لدرجة لا أستطيع معها أن أصدقهم فيما يقولون .

حقاً أن المسيحية تقول بأن الإنسان يجب أن يؤثر جاره على نفسه كى يحظى بالنعيم في الآخرة ، ولكن المسيحية تقول أيضاً بأن الإنسان يجب أن يكون نافعا لبنى جنسه محبة منه في الله ، وهو قول قدسى سام حقاً ، فالإنسان يبحث بعقله عن معرفة ما يرضى الله فيدرك أن

النظام هو سنة الخالق، وبذا يعمل جهده طواعية في السير على هذه السنة الكبرى . فبينما هو يضحى بمصلحه الشخصية في سبيل هذا النظام الكامل الشامل للخليقة كلها فإنه لا ينتظر جزاء سوى الاستمتاع بالتفكير فيه .

لست أو من بأن المصلحة الشخصية هي الحافز الأوحده الذى يجرى المتدينين . وإن كنت أعتقد أن المصلحة الشخصية هي الوسيلة الكبرى التى تصطنعها الأديان ذاتها كى تحكم بها الناس وتوجههم إلى سلوك الطريق المستقيم ، ولا يخامر فى أى شك فى أنها تصل بهذه الوسيلة إلى قلوب الجماهير ، وتحظى بالقبول لديهم . أنا لا أدرك بشكل واضح السبب فى أن مبدأ المصلحة الشخصية بمعناه الصحيح هذا يؤدى إلى تقويض معتقدات الناس الدينية ، وأنه لأسهل من ذلك على ، أن أبين السبب فى أنه يقويها فيهم ويقربهم منها . فلنفرض أن الحصول على السعادة فى هذه الدنيا يقتضى الإنسان أن يعارض غرائزه فى جميع الأحوال ، وأن لا يعمل فى هذه الحياة عملاً ما إلا عن قصد وبعد تدبير .. فبدلاً من أن يندفع بشكل أعمى وراء رغائبه الأولية ، يكون قد تعلم فن مقاومتها وعود نفسه أن يضحى فى سهولة بمسرته العاجلة فى سبيل مصلحة حياته الدائمة كلها . فإن كان مثل هذا الرجل يؤمن بالدين الذى يدين به حقاً فإنه لا يكلفه الخضوع لما يفرضه عليه من قيود إلا قليلاً . فالعقل ذاته يشير عليه بالطاعة والإذعان ، والعادة قد أعدته للصبر على تلك القيود . فإن خامرته الشكوك فيما يتعلق بالموضوع الذى علق عليه آماله ، فإنه لن يسمح لهذه الشكوك أن تقف مع ذلك فى سبيله ، وسيقرر أنه من الحكمة أن يخاطر ببعض المناعم الدنيوية كى يحتفظ بحقه فى ميراثه العظيم الذى وعد به فى الآخرة ، قال بسكال : لأن يكون المرء مخطئاً فى اعتقاده أن الدين المسيحى حق ليس خسارة كبيرة لأحد . ولكن ما أقطع أن يكون الخطأ فى اعتقاده أنه دين كاذب .

فلا يبدى الأمريكيون ذلك النوع الفظيع من عدم الاكتراث بشئون الحياة الأخرى ، ولا هم يصطنعون شيئاً من تلك الكبرياء الصبائية فى استهتارهم بالأخطار التى يرجون أن ينجوا من شروها ، ومن ثم كانوا يعترفون بإيمانهم بدينهم من غير أن يستشعروا أى خجل أو أى ضعف من جراء هذا الاعتراف ، بل إننا لنجدهم حتى فى شدة غيرتهم لبيدون شيئاً هادئاً هدوءاً يجلب عن الوصف ، ومنظماً كل التنظيم ومقصوداً كل القصد ، حتى لنكاد نتصور أن العقل ، لا القلب ، هو الذى حدا بهم إلى الهجىء إلى المذبذب (المحراب) .

فالأمرىكيون لا يتبعون دينهم بدافع من المصلحة الشخصية فحسب ، بل كثيراً ما يجعلون المصالح التى تحفزهم إلى اتباعه من مصالح هذه الدنيا . لا يخفى أن القسس فى العصر الوسيط لم يكونوا يتحدثون إلى الناس إلا عن الحياة الأخرى ، ولا يهتمون بأن يبرهنوا لهم أن المسيحى المخلص لدينه يمكن أن يكون سعيداً فى هذه الدنيا . ولكن الوعاظ الأمريكيين يشيرون دائماً إلى شئون هذه الدنيا ، ولا ياعدون اهتمامهم عنها إلا بكل مشقة ، فكى يصلوا إلى قلوب سامعيهم دأبوا على أن يوضحوا لهم أن المعتقدات الدينية تعاون على الحرية والاطمئنان العام ، وكثيراً ما يكون من الصعوبة بمكان أن نعرف من مواعظهم إن كان الغرض الرئيسى من الدين الحصول على السعادة الأبدية فى الآخرة أو الاستمتاع بالسعادة فى هذه الدنيا .

## الفصل العاشر

### ميل الأمريكيين إلى الرفاهية المادية

ليست شهوة الأمريكيين إلى إرضاء الرفاهية المادية أمراً مقصوراً دائماً على فئة أو طبقة معينة، ولكنه أمر عام فيهم، فإن كانوا لا يشعرون به جميعاً بطريقة واحدة، فهم يشعرون به بشكل ما، فالحرص على إرضاء أدنى مطالب الجسد وتوفير حتى أدنى وسائل الراحة في هذه الدنيا يشغل عقول الأمريكيين كافة، وثم شيء من هذا القليل يتجلى في أوروبا ويزيد فيها باستمرار، فمن الأسباب التي تؤدي إلى هذه النتائج المتشابهة في كل من الدنيا القديمة والدنيا الجديدة ما هو متصل بالموضوع الذي نحن بصدده هنا، فجدربنا أن ندرس هذه الأسباب .

لما كانت الأموال ثابتة في الأسر يتوارثها الأبناء عن الآباء، صار عدد كبير من الناس يستمتعون بمباهج الحياة من غير أن يشعروا بميل خاص إلى هذه المباهج يعدونه مقصوراً عليهم وحدهم دون غيرهم، فقلب الإنسان لا ينشغل بملكته بشيء قيم لا ينازعه فيه أحد، بقدر ما ينشغل برغبته في حيازته. (وهي رغبة لم تجد ما يرضيها بعد كل الرضى) وبالخوف الدائم من أن يزول عنه، فالأغنياء في الجماعات الأرستقراطية لا يساورهم أى خوف من تغير حالهم التي هم عليها، لأنهم لم يجربوا أية حالة غيرها، فيندر أن يمر وجود مثل تلك الأحوال بمخاطرهم، وليست وسائل الراحة في الحياة الدنيا هي الغرض من الحياة، فهي لا تعدو أن تكون طريقة من طرق العيش ليس إلا؛ وهم ينظرون إليها كما ينظرون إلى الوجود نفسه، يستمتعون به من غير أن يفكروا فيه، وعندما يكون الميل الطبيعي الذي يستشعره الناس جميعاً بشأن المعيشة الهنية، قد وجد بذلك ما يرضيه في غير مشقة، وفي غير خوف، اتجهت قدراتهم العقلية اتجاهاً آخر - إلى مشروعات أشق وأسمى تستثير عقولهم وتستغرق انتباههم .

ومن ثم كان الأرستقراطيون كثيراً ما يدون، وهم وسط هذه المتع الحسية، احتقاراً لها مصحوباً بشيء من الاستعلاء، ويظهرون قوة عجيبة للاحتفال والصبر إذا ما حرموها. فجميع الانقلابات التي هزت الأرستقراطية أو قضت عليها كشفت عن السهولة التي يستغنى بها هؤلاء الناس الذين ألفوا الاستمتاع بالكماليات الزائدة على الحاجة - عن

الضروريات نفسها، على حين أن الذين كدحوا وجاهدوا في سبيل الكفاح من أجل العيش، لا يكادون يجدون ما يمك عليهم أرقامهم إذا ما فقدوا هذا الكفاف .

فإن انتقنا من الطبقات العليا ونظرنا إلى الطبقات الدنيا وجدنا نتائج شبيهة نشأت عن أسباب مضادة لتلك الأسباب، ففي الأمة التي تسودها أرستقراطية تجعل المجتمع فيها جامداً، نجد الشعب يعتاد الفقر في النهاية كما يعتاد الأغنياء الغنى والرخاء، ولا يساور الأغنياء أى قلق بشأن راحتهم المادية لأنهم يستمتعون بها من غير جهد بذلوه من أجلها، على حين لا يفكر الفقراء في أشياء غلب عليهم اليأس من الحصول عليها، ولا يكادون يعلمون عنها شيئاً يكفى لحملهم على الرغبة فيها، فخيال الفقراء الذين في أمثال هذه الجماعات يندفع وراء تصور دنيا أخرى؛ فأنواع البؤس التي في الحياة الواقعية تحدد بخيالهم ولكنهم يهربون منها وينطلقون يسعون وراء الملذات فيما وراءها بكثير .

وعلى العكس من ذلك إذا ما ألغيت الفروق والميزات الاجتماعية بإلغاء الرتب والطبقات، وإذا ما قسمت الأملاك الموروثة، وانتشرت الحرية والتعليم كل انتشار - فمعتد تراود الرغبة في الحصول على وسائل الراحة والمتعة في هذه الحياة - تراود خيال الفقراء، ويستولى الفزع من فقدانها على أخيلة الأغنياء، ثم تبرز عدة ثروات ضئيلة، لأصحاب نصيب كاف من المتع الحسية، يسر قيام ميل فيهم إلى مثل هذه المتع، ولكنه نصيب لا يكفى لإرضاء هذا الميل، فهم لا يستطيعون أبداً أن يحصلوا عليها من غير مجهود يبذلونه فيها، ذلك إلى أنهم لا ينهمكون فيها من غير خوف يساورهم ويقض مضاجعهم، فلا غرو أن كانوا يبذلون دائماً كل جهد في السعى وراء هذه المتع أو الاحتفاظ بها وهي متع رائعة ولكنها ناقصة تنفلت منهم باستمرار .

فإن أنا أردت أن أبحث عن أهم شهوة طبيعية في الناس الذين يستتر حول أصلهم أو قلة حظهم، نشاطهم أو يجد منه، لما وجدت شهوة أنسب بأحوالهم من حب الرخاء المادى؛ فالميل إلى إرضاء مطالب الجسد المادية هذا، شهوة من شهوات الطبقات الوسطى تنمو وتنتشر مع هذه الطبقات التي يصعد منها هذا الميل حتى يصل إلى طبقات المجتمع العليا.. ويهبط كذلك حتى ينفذ إلى كلة الشعب كله .

لم يحدث أى صادفت في أمريكا مواطناً واحداً بلغ به الفقر مبلغاً يمنعه من أن يلقى نظرة كلها أمل أو كلها حسد على ما يستمتع به الأغنياء من متع ومسررات، ولا من لم يمتلك سلفاً في تخيلاتهم وأحلامهم كل تلك الخيرات والنعم التي ما زالت الأقدار تصر في عناد على حرمانه إياها .

هذا، ومن جهة أخرى لم أشاهد بين الأغنياء من أهالى الولايات المتحدة، شيئاً من ذلك الاحتقار المستعل للمتعة الحسية الذى نجد أحياناً في أكثر الأرستقراطيين ثراء، وأشدهم انحلالاً خلقياً. فأغلب هؤلاء الأثرياء كانوا فقراء يوماً ما، وشعروا بلذعة الحاجة

ومرارة الفقر، وظلوا طويلاً ضحية لسوء الحظ ونكد الأيام، أما بعد أن تحقق لهم الفوز فقد ظلت تلك الشهوات التي رافقتهم في صراع مع الفقر، باقية، فكأن بعقولهم قد ثملت بتلك المتع الصغيرة التي ظلوا يسعون وراءها أربعين عاماً أو تزيد.

وليس معنى ذلك أن في الولايات المتحدة، كما هو الشأن في غيرها من البلاد، عدداً كبيراً من الأغنياء قد أصبحوا بحصولهم على أملاكهم عن طريق الإرث، يملكون ثروة لم يذلوا فيها أى جهد، ولم يكسبوها بعرق جبينهم؛ فحتى هؤلاء الناس ليسوا أقل تعلقاً بمسرات الحياة المادية. لقد أصبح الميل إلى الرفاهية المادية غرام الأمة الغالب عليها، وصار تيار العواطف البشرية العظيم يجرى في هذا الاتجاه ويجرف معه كل شيء يصادفه في طريقه.

## ما يترتب على الغرام بالمتع الحسية من آثار خاصة فى البلاد الديمقراطية

قد يتوه القارىء مما ذكرناه توا أن غرام الأمريكيين بالمتع الحسية، يجب أن يدفعهم باستمرار إلى الانحراف عن جادة الأخلاق الكريمة، ويعكس صفو الأسر، ويهدد سلامة المجتمع كله فى جملته. ولكن الأمر ليس كذلك، فالغرام بالمتع الحسية هذا، يؤدى فى البلاد الديمقراطية إلى نتائج مختلفة كل الاختلاف عما يؤدى إليها فى الأمم الأرستقراطية.

قد يحدث فى بعض الأحيان أن يزل الأرستقراطيون شيئاً فشيئاً، وينمكون فى المملدات الحسية وحدها، بعد ما يكونون قد ملوا الاشتغال بالشئون العامة، وقد فاضت جيوبهم بالأموال، وصاروا يعيشون وسط معتقدات دينية منهاره، وفى دولة آخذة فى التدهور. أما فى الأوقات الأخرى، فقوة الملك<sup>(١)</sup> أو ضعف الشعب، تضطر النبلاء من غير أن تجردهم من أملاكهم و ثروتهم، إلى أن يقفوا بمنأى عن إدارة الشئون العامة، وعندما يكون الطريق إلى الاشتغال بالمشروعات الجسام مغلقاً فى وجوههم، نجدهم يستسلمون إلى رغباتهم المضطربة - فينمكون إلى الأذقان فى المملدات الحسية ليسوا فيها ما كان لهم من أمجاد سالفه.

وهكذا عندما يتجه أعضاء هيئة أرستقراطية إلى السعى وراء المتع الحسية، فإنهم يوجهون إلى هذه الغاية كل ما كسبه من همة ونشاط فى أثناء خبرتهم الطويلة بالقوة والسلطان. وأمثالهم لا يقنعون بالسعى وراء توفير وسائل الراحة، فلا يرضون إلا بتلك الدعارة الحمراء وذلك الفساد البراق؛ فهم يعبدون المملدات الحسية بشكل باهر، حتى لكأنهم يتبارون فى التفنن فى إفساد طبائعهم الإنسانية، وكلما كانت الأرستقراطية قوية ذاتعة الصيت تستمتع بحرية واسعة، كانت أشد دعارة وفجراً؛ ومهما كانت فضائلهم السابقة متألقة، لا يسعنى إلا أن أبشر هذه الأرستقراطية بأن لن يفوقها شئ سوى فخامة تلك الرذائل.

(١) لعل المؤلف يشير هنا إلى ريشلو الوزير الفرنسى (١٥٨٥ - ١٦٤٢) الذى ظل يعمل باستمرار على إبعاد النبلاء الفرنسين عن مراكز الحكم والسلطة.

إن هذا الميل إلى المتع الحسية لا يؤدي بالشعب الديمقراطي إلى مثل هذا الإفراط، فمحية الرفاهية تتجلى هنا في جميع الناس في صورة شهوة عارمة صامدة، وإن كانت محدودة المدى. فليس الأمر عندهم أمر إنشاء قصور شاهقة، وتسخير الطبيعة، أو محاكاتها، ولا التقيب في أرجاء الدنيا كلها حياً في إرضاء شهوة رجل واحد؛ ولكنه أمر إضافة بضعة أمتار من الأرض إلى حقل، وغرس بضع أشجار من الفاكهة في بستان، وتوسيع مسكن، والعمل الدائب على جعل الميعة أرخص وأروح للنفس، وأكثر ملاءمة لها، وتحاشي المتاعب، وتوفير أدنى الحاجات في غير مشقة، وتكاليف لا تذكر. وتلك كلها أغراض توافه، لاشك، ومع ذلك فالنفس البشرية تتشبث بها وتعنى باستمرار، حتى لتحجب عنها أمور سائر العالم، بل وقد تحول بينها وبين السماء.

هذا، ولعل قائلاً يقول إن ذلك لا يصدق إلا على أفراد المجتمع المتوسطي الحال، أما الأثرياء فيبدون ميولاً شبيهة بما كان لهم في العصور الأرستقراطية. ولكني لأستسيغ هذا الرأي، فمن حيث غرام الناس بالمتع الحسية، فميول الأثرياء في البلاد الديمقراطية لا تختلف في كثير عن ميول سائر أفراد الشعب، فهم إما يشاركونهم فيها فعلاً. لأنهم منه نباتوا، أو لأنهم يعدونه واجباً عليهم أن يدعوا لها. فاتهام الناس بالملذات الحسية في المجتمع الديمقراطي يتخذ صورة معتدلة هادئة يتحتم على الجميع أن يراعوها، فمن الصعب أن يشذ المرء منهم عن القاعدة العامة في رذائله صعوبة شذوذه عنها في فضائله، ومن ثم عنى الأغنياء في الأمم الديمقراطية بسد احتياجاتهم البسيطة أكثر مما يعنون بإشباع ملذاتهم غير العادية، وبذلك يرضون طائفة من رغباتهم الصغيرة من غير أن ينهمكوا في إرضاء أية شهوة كبيرة شاذة عن المألوف. وهذا ما يجعلهم ضعفاء مترهلين أكثر مما يجعلهم فجاراً داعرين.

وهذا الميل الخاص إلى المتع الحسية الذي يتجلى في أهل العصور الديمقراطية ليس ضد النظام العام في شيء، بل إنه ليقضي توافر هذا النظام حتى يتسنى له أن يتحقق فعلاً؛ ولا هو يناقض الأخلاق العامة، لأن الأخلاق الطيبة تعاون على مراعاة استقرار الهدوء العام، وعلى ازدهار الصناعة والتجارة، هذا، وكثيراً ما يتحد هذا الميل مع نوع من الأخلاق الدينية. فكل الناس يودون أن يحصلوا على أكبر نصيب يستطيعون الحصول عليه من هذه الدنيا دون أن يخاطروا بنصيبيهم من النعيم في الآخرة. فتم ملذات حسية لا يتسنى للمرء أن ينهمك فيها من غير أن يتورط في جريمة ما، ولذلك فهو يحرص كل الحرص على تجنبها، على حين أن نمة أخرى لا يحرص عليها، بل ينهمك فيها؛ فإلى هذه المتع يتجه القلب والخيال، وتتجه الحياة نفسها في غير تحفظ، حتى أن الناس في انهماكهم في السعى وراءها قد يفتلون عما في متناول أيديهم من مقتنيات ثمينة تعد قواد مجد البشر وعظمتهم.

ليس ما أنعيه على مبدأ المساواة أنه يفضي بالناس إلى السعى وراء المتع المحرمة، بل ما أنعيه عليه أنه يستفد كل جهودهم ويحصرها في السعى وراء الحصول على تلك المتع الحلال، وبذلك ينشأ في العالم نوع من المادية الشريفة، التي لا تفسد الروح وإن كانت تضعفها، وتعمل في صمت وسكون على استفاد مصادر نشاطها.

## الفصل الثاني عشر

# من الأمريكيين من يسرفون في التعصب للناحية الروحية

على الرغم من أن الرغبة في الحصول على ما في هذه الدنيا من طيبات وخيرات ، تعد غرام الشعب الأمريكي المسيطر عليه ، فثم فترات قصار تبدو فيها نفوس الأمريكيين وكأنها قد تخلصت بفترة من قيود المادة التي تكبلها ، واندفعت لتحلق في السماء - فكثيراً ما يصادف المرء في ولايات الاتحاد كلها - ولا سيما في تلك التي في أقاصي الغرب القليل السكان ، يصادف وعاظاً متجولين يدعون الناس إلى طاعة الله ، فقد نرى أسرات بأكملها وشيوخاً ، ونساءً وأطفالاً يجتازون المرات الوعرة ، ويعبرون القفار غير المطروقة ، ويقطعون المسافات الشاسعة كي يشهدوا اجتماعاً عقد في معسكر ، حيث يستمعون إلى ما يلقي فيها من المواعظ والخطب ، ويقضون عدة أيام وليال ينسون فيها هموم الأعمال ، بل ومطالب الجسم الملحة نفسها .

وقد يصادف المرء في أرجاء متفرقة في أمريكا أناساً تشبهوا بروحانية مسرفة ، وعارمة أحياناً ، لانكاد نجد لها مثيلاً في أوروبا ، وقد تظهر الفينة بعد الفينة طوائف من الناس غريبة كل الغرابة ، تحاول كل طائفة منها أن تشق لها طريقاً جديدة إلى سعادة الآخرة ونعيمها ، فالجنون الديني منتشر في الولايات المتحدة أیما انتشار .

ومع ذلك يجب ألا تستثير فينا هذه الحقائق أية دهشة ، فليس الإنسان هو الذي غرس في نفسه محبة اللانهاى والميل إلى ما هو خالد لا يفنى . وليست هذه الميول السامية من ولائد إرادته المتقلبة ، ولكن جذورها الراسخة متأصلة في طبيعة الإنسان ؛ ووجودها باق على الرغم مما قد يذله من جهود ضدها ، حقاً إنه قد يستطيع أن يعوقها ويقاومها ، ولكنه لا يستطيع أن يقضى عليها بحال من الأحوال .

فللروح مطالب يجب أن تقضى لها ، وأيا كانت الجهود التي تبذل للانحراف بالروح عن غاياتها فإنها لا تلبث أن يصيبها الملل ، وتصبح قلقة مضطربة وسط المسرات الحمسية ، فلو كانت مواهب الكثرة العظمى من الناس موجهة نحو السعى وراء الأمور المادية وحدها دون

غيرها ، لصح لنا أن نتوقع حدوث رد فعل عجيب في نفوس بعض الناس<sup>(١)</sup> فتهيم أحراراً في عالم الروح مخافة أن تظل مقيدة بأغلال الجسم ومعتقلة في سجنه الضيق .

فليس عجيباً إذن أن يقوم وسط جماعة تتجه أفكارها نحو العناية بشئون هذه الدنيا ، بضعة أفراد يتجهون نحو السماء وحدها ، وإني لیدهشني أن كان التصوف لا يتقدم في هذا في وقت قريب في أمة كلها عمل على زيادة رفاهيتها وسعادتها في هذه الدنيا .

قيل إن صحارى طيبة الموحشة ، كانت حافلة بجماعات ممن اضطهدهم الأباطرة ، وأفرغتهم مذابح الملاعب (السرك) ، ولكني أرى أن السبب في ذلك يعود إلى ترف روما ، وإلى فلسفة اليونان الأبيقورية .

فإن لم تكن أحوال الأمريكيين الاجتماعية وظروفهم وقوانينهم الحالية ، قد قصرت عقولهم كل القصر على الاتجاه إلى السعادة في هذه الدنيا ، لكان من المحتمل أن يكونوا أكثر تحفظاً وأعظم خبرة كلما اتجه انتباههم إلى هذه الأمور غير المادية ، ولكان من الجائز أن يكبحوا أنفسهم في غير مشقة ، ولكنهم مع ذلك يشعرون بأنهم سجناء في نطاق معين ، قد لا يسمح لهم باجتيازه ، وإن حدث أن اجتازوه لم تعرف عقولهم أين تقف وتثبت بل كثيراً ما يندفعون طلقاء إلى ما وراء العقول الذي تفره الفطرة السليمة .

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى ما انتشر في العصور الأولى للمسيحية ، من الرهينة والانقطاع عن الناس وعن الدنيا ، والاحتكاف في الأديرة والصوامع لعبادة الله . والمعروف أن المصريين المسيحيين كانوا أول من تهرب في البراري الموحشة ، ثم تبعهم في ذلك غيرهم من مسيحي الشرق والغرب .

## الفصل الثالث عشر

# الأمريكيون قلقون على الرغم مما هم فيه من ازدهار

لا يعدم المرء أن يصادف في بعض نواح قصية في الدنيا القديمة ، أقاليم صغيرة كأنها نسيت في زحمة الضجيج العالمي ، فظلت جامدة ، على حين يتحرك كل شيء حولها . وتعيش الجمهرة الكبرى من سكان هذه الأقاليم في فقر مدقع وجهل دامس ، لا يشاركون في شئون الحكم بشيء ؛ وكثيراً ما يكونون موضع ظلم الحكومة واضطهادها ، ومع ذلك كله نرى على وجوههم سمة الهدوء ، ونلمس فيهم خفة الروح .

لقد شاهدت في أمريكا أعظم الناس حرية ، وأكثرهم استنارة يعيشون في أسعد حال يمكن أن تتيحها هذه الدنيا لأمة ما ، ومع ذلك كانوا يبدون ، في نظري ، وكأن سحابة تغشى وجوههم باستمرار ، وكنت أراهم متمزتين كل التزمتم حتى ليغلب عليهم الحزن وهم وسط ملذاتهم .

وأهم سبب لهذا التناقض أن الأولين لا يفكرون فيما يعانونه من بلايا ، على حين يفكر الآخرون في الحصول على مزايا ليست في متناولهم . فمن الغريب أن نرى الأمريكيين ينشطون في العمل على ما فيه سعادتهم الخاصة نشاط المحموم ، ومع ذلك نلاحظ فيهم ذلك الفزع الغامض الذي يقض مضاجعهم على الدوام خشية ألا يكونوا قد اختاروا أقصر الطرق التي تؤدي بهم إلى تلك السعادة .

ففي الولايات المتحدة يتشبث الإنسان بخيرات هذه الدنيا كل التشبث كما لو كان واثقاً من أنه سيعيش أبداً ، فتراه عجولاً كل العجلة في الاستيلاء على جميع ما عسى أن يكون في متناوله منها ، حتى ليخيل إليك أنه في خوف دائم ألا يطول به الأجل حتى يستمتع بها ، فتراه يمد يده إلى كل شيء . ولكنه لا يحكم القبض على أي شيء ، بل سرعان ما يدعه يفلت منه ليسارع إلى السعي وراء لذات آخر جديدة .

فقد يتنى الرجل في الولايات المتحدة بيتاً له ليقضى فيه شيخوخته وإذا به يبيعه قبل أن يتم تركيب أسقفه ؛ ويزرع بستاناً له ، ثم لا يلبث أن يؤجره لغيره بعد أن تكون أشجاره

قد أوشكت أن تؤق أكلها؛ ويعد حقلاً للحرث والزرع ثم يدعه لسواه يجنى غلاته؛ ويختار مهنة يحترفها وإذا به يهجرها إلى غيرها؛ وينزل مكاناً بغية أن يستقر فيه ولكن ما أسرع ما يتركه إلى حيث يستطيع أن يجرى وراء أهوائه ورغباته المتقلبة. فإن سمحت له أشغاله الخاصة بقليل من وقت الفراغ انغمس في توه في التيارات السياسية؛ وإن هو توافرت له بضعة أيام عطلة عقب سنة قضاها في عمل متصل لاهوادة فيه، دفعه حب الاستطلاع الشديد إلى المضي إلى مجاهل الولايات المتحدة، فيقطع ألفاً وخمسمائة ميل في بضعة أيام ينضى فيها عن نفسه ما كان ينعم به من سعادة. وأخيراً يوافيه أجله المحتوم قبل أن يعتريه الملل من سعيه العقيم وراء تلك السعادة التامة التي ظلت تفلت من يده باستمرار.

إن المرء ليدهب لأول وهلة عندما يفكر في هذا القلق العجيب الذي يساور عدداً كبيراً ممن أنعم الله عليهم بالسعادة، فيكونون قلقين مضطربين على الرغم مما هم فيه من رخاء، ومع ذلك فهذا منظر قديم قدم العالم كله؛ ولكن الجديد فيه أن نجد شعباً بأسره يتخذة مثالا له.

فيجب أن نعد ميل الأمريكيين إلى المتع الحسية المصدر الأصلي لهذا القلق الذي يتجلى في أفعالهم وسلوكهم والذي ينشأ عنه كذلك عدم الثبات هذا الذي يضربون لنا كل يوم أمثلة جديدة عليه. فمن يجعل كل همه الجرى وراء السعادة الدنيوية يكن دائماً في عجلة من أمره، إذ ليس لديهم سوى وقت محدود ليعثر فيه بهذه السعادة ويستمتع بها. فذكرى قصر الأجل تظل تحفزه باستمرار، فضلاً عما لديه من خيرات. لا يزال يتصور كل لحظة تمر به، الآفاً غيرها، يحول الموت دون استمتاعه بها إذا هو لم يسع وراء اقتناصها، فهذه الفكرة تقض مضجعه، وتغلوه خوفاً وحسرة، فيظل عقله في نوع من الاضطراب لا ينقطع، ويدفعه إلى أن يغير خططه، ويبدل مسكنه باستمرار.

فإن أضفنا إلى ميل الأمريكي إلى المتع المادية، حالة اجتماعية تتميز بأن لا قانون فيها ولا عرف، يقضى على كل إنسان بأن يلتزم مركزه ولا يبرحه إلى غيره، لكان هذا داعياً جديداً قوياً يضاف إلى ما سبق من دواعي هذا القلق النفسى، ومن ثم يرى الناس باستمرار أن يغيروا اتجاههم، مخافة أن يضلوا عن أقصر طريق يؤدي بهم إلى السعادة التي ينشدونها.

هذا، ومن السهل أن نتصور أن الناس الذين عقدوا عزمهم على انتهاب اللذات الحسية، إن كانوا يعملون على تحقيق ما يشتهونه بإقبال ولهفة، فسرعان ما يفتر نشاطهم وتنبط همهم، فإذا كان ما يهدفون إليه لا يعدو المتعة، وجب أن تكون الوسائل التي يصطنعونها لتحقيق هذا الغرض سريعة ميسرة، وإلا كانت المشقة التي يعانونها في إرضاء شهواتهم أشد من استمتاعهم بهذا الإرضاء نفسه، فعقليات هؤلاء الناس إذن متوقدة

وفاترة ، عنيفة ومترهلة معاً ، وفي وقت واحد ، إنهم لا يخشون الموت مثلما يخشون المثابرة على بذل جهود متصلة لبلوغ غاية معينة .

ويؤدي بنا مبدأ المساواة في الأحوال الاجتماعية ، من طريق أخرى أقصر من السابقة ، إلى كثير من النتائج التي أشرت إليها هنا ، فحيثما تلغى جميع الامتيازات القائمة على من الثروة والأصل ، وتصح جميع الوظائف وجميع المهن مفتوحة للجميع وحينئذ يستطيع أى إنسان أن يصل بفضل همته ونشاطه إلى الذروة في أية مهنة أو وظيفة ، فإنه عندئذ يرى أمامه مجالاً منفسحاً غير محدود لمطامحه ، وسرعان ما يتحيل إليه أنه لم يولد إلا لمستقبل زاهر عظيم ، ولكن هذه وجهة نظر خاطئة تصححها لنا الخبرة في كل يوم يمر بنا . فالمساواة نفسها التي تتيح للمواطنين أن تداعبهم تلك الآمال العراض ، تجعلهم أقل قدرة على تحقيقها ، لأنها تفرض على قواهم قيوداً تكبحهم من كل ناحية ؛ على حين تتيح المجال لرغائهم كي تمتد وتتسع . فليس هؤلاء المواطنون عاجزين ضعافاً فحسب ، بل إنهم ليصادفون في كل خطوة يحطونها عقبات كأداء لم يحسبوا لها حساباً من قبل . لقد قضوا على ما كان لبعض إخوانهم من امتيازات كانت عقبة في سبيل تقدمهم ، ولكنهم فتحوا في الوقت نفسه الأبواب على مصاريحها للمنافسة العامة ، لقد غيرت الحواجز والسدود شكلها ، ولكنها لم تغير مواضعها ، فحيثما يكن الناس متساوين تقريباً ، ينهجون مسلكاً واحداً ، يكن عسيراً على أى واحد منهم أن يتقدم بخطى سريعة ، وأن يشق له طريقاً وسط الجموع الزاخرة المتزاحمة التي تحيط به ، وتضغط عليه من كل جانب . فالصراع الدائم بين تلك النزعات الفطرية التي تدعو إلى المساواة في الأحوال الاجتماعية ، وبين الوسائل التي تقدمها لإرضائها تعذب النفس وترهقها .

ليس عسيراً أن نتصور أن جماعة من الناس بلغوا درجة من الحرية ترضيهم ففنعوا بها كل القناعة ، ويطيب لهم أن يستمتعوا باستقلالهم في غير عجلة ، وفي غير ما قلق . ولكن الناس لا يستطيعون أبداً أن يقيموا لهم مساواة يرضون بها ويقنعون . فمهما بدلوا من جهود فلن ينجحوا في أن يبطوا بجميع الأحوال الاجتماعية إلى مستوى واحد ، وحتى إن نجحوا في ذلك لسوء حظهم ، وبلغوا تلك الدرجة من المساواة المطلقة الكاملة من حيث المراكز ، فسيظل تفاوتهم في القوى العقلية وفي المواهب الطبيعية قائماً لا يزول بالضرورة ، لأنه تفاوت من صنع الله مباشرة ، ولذلك سيبقى أبداً غير خاضع لقوانين البشر . فمهما كانت حالة الشعب الاجتماعية وحالة نظامه السياسي ديمقراطية ، فلا شك أن كل فرد في المجتمع سيجد حوله عدة مواضع يغفل فيها مركزه الخاص ، وإنا لنستطيع أن نتنبأ بأنه سيوجه بصره شطر ذلك الاتجاه ويركزه فيه . فعندما يكون التفاوت في الأحوال الاجتماعية قانوناً غالباً على المجتمع فإن أبرز أنواع التفاوت الصارخة التي بين الناس لا تسترعى الأنظار ؛ أما إذا كان كل شيء في مستوى واحد تقريباً فأدنى تفاوت يلفت النظر ، فتقضى به العيون ، ومن ثم كانت الرغبة في المساواة تزداد نهماً وقوة ، كلما ازدادت المساواة قرباً من الكمال .

من السهل على الناس في الأمم الديمقراطية أن يصلوا إلى مستوى واحد من حيث أحوالهم الاجتماعية. ولكنهم لن يلعنوا منها أبداً القدر الذي يطمعون فيه. فسيظل هذا المستوى يتراجع أمامهم على الدوام رغم أنه لا يحفى نفسه عن أبصارهم، ويجرهم معه في تراجعه هذا. وبذلك لا يرحون يظنون أنهم على وشك اللحاق به. ولكنه يفلت منهم في كل لحظة ويعد عن تناول أيديهم: فهم قرييون منه القرب الذي يتيح لهم أن يدركوا ما به من مفازن تأخذ بألبابهم، ويبعدون عنه البعد الذي يحول بينهم وبين الاستمتاع به، فقبل أن ينعموا بتذوقه ويتملوا به إذا بالأجل المحتوم يوافقهم.

ويجب أن نعزو إلى هذه الأسباب نفسها، تلك «السوداوية» الغريبة التي كثيراً ما تعترى أهل البلاد الديمقراطية، على الرغم مما هم فيه من رخاء. كما يجب أن نعزو إليه كذلك هذا التبرم بالحياة الذي يحيم عليهم في بعض الأحيان وسط ما هم فيه من أحوال هادئة ميسرة. فكثيراً ما يشكو الناس في فرنسا من ازدياد حوادث الانتحار فيها، على حين أن الانتحار في أمريكا قليل، ولكن المعروف أن الجنون فيها أكثر مما في غيره من البلاد. وهذه كلها أعراض شتى لمرض واحد بعينه. فالأمريكيون لا يقضون على حيواتهم بأيديهم مهما بلغ بهم القلق والاضطراب، لأن دينهم يحرم عليهم ذلك. هذا، ويندر أن يكون للمادية أى أثر فيهم على الرغم من ولعهم بالملذات الحسية، إن الإرادة قد تقاوم ولكن العقل كثيراً ما يستسلم.

فالتع الحسية في العصور الديمقراطية أشد كثيراً مما في العصور الأرستقراطية، كما أن عدد الذين يشاركون في الاستمتاع بها أكثر كل الكثرة. إلا أننا، من جهة أخرى، لا يسعنا إلا التسليم بأن آمال الإنسان ورغباته كثيراً ما تفشل، وتصبح روحه أشد مرضاً واضطراباً، وهوومه أحد وأنكى.

## الفصل الرابع عشر

# الأمريكيون يجمعون بين الميل إلى الملذات الحسية ومحبة الحرية وبين العناية بالشئون العامة في أمريكا

عندما تتحول دولة ديمقراطية إلى ملكية مطلقة، يحدث فيها ازدهار مادي عظيم يظل قائماً فترة من الزمن؛ لأن النشاط الذي كان موجهاً من قبل إلى العناية بالشئون العامة وإلى المصالح الخاصة يتجه كله دفعة واحدة إلى المصالح الشخصية وحدها ويتركز فيها، ولكن سرعان ما يتراخي هذا النشاط ويفتر، ويقل الإنتاج. ولست أدري إن كان من الميسور ذكر اسم شعب واحد تجارى أو صناعى، من أول الفينيقين إلى الفلورنسيين (الإيطاليين) والإنجليز، لم يكن شعباً حراً. فلا بد أن يكون ثمة صلة وثيقة وضرورية إذن بين هذين العنصرين، الحرية والصناعة الإنتاجية.

وهذه قضية تصدق حقاً على الأمم كلها بعامة، وعلى الديمقراطية بخاصة. وقد أوضحت فيما سلف أن الناس الذين يعيشون في عصور المساواة بحاجة دائمة إلى تكوين الجمعيات كي يستطيعوا أن يحصلوا على رغباتهم، كما أوضحت كذلك، أن الحرية السياسية الواسعة تؤدي إلى ترقية هذا الفن (فن تكوين الجمعيات) ونشره. فالحرية تعاون إذن في هذه العصور بوجه خاص على زيارة الإنتاج ومن ثم الثروة، ومن السهل علينا أن ندرك كذلك أن الاستبداد يؤدي، بوجه خاص، إلى نقيض هذه النتيجة.

ليس من طبيعة السلطة الاستبدادية أن تكون عنيفة ولا قاسية في العصور الديمقراطية؛ وإنما هي دقيقة، وكثيرة التدخل في كل شيء. فكل استبداد من هذا الطراز، على الرغم من أنه لا يبطش بالإنسانية ولا يطؤها بالأقدام، لا يتفق مع روح التجارة والصناعة، بل يناقضها تمام المناقضة.

فالناس في العصور الديمقراطية بحاجة دائمة إلى أن يكونوا أحراراً حتى يتيسر لهم الحصول على تلك المتع الحسية التي يتطلعون إليها باستمرار. هذا وقد يحدث في بعض الأحيان أن يندفع بهم ميلهم المفرط إلى هذه المتع، إلى أن يستسلموا لأول سيد يظهر فيهم، فغرامهم بالرفاهية غرام يقضى على نفسه بنفسه إذن، ويعددهم على غير وعى منهم عن الرغبة التي يسعون وراء تحقيقها، مسافات بعيدة.

لا شك في أن ثمة مأزقاً خطراً كل الخطر في حياة الشعوب الديمقراطية فإذا ما ازداد الميل في شعب منها إلى الممذات الحسية بأسرع من انتشار التعليم بين أفرادها، أو من ازدياد خبرتهم بالمؤسسات الحرة، فسرعان ما يأتي عليهم وقت يندفعون فيه في تهور ورعونة عند مرأى الأموال والخيرات الجديدة التي يتلهفون في الاستيلاء عليها. ففي تلهفهم الشديد الطاغى على جمع المال يغفلون عن إدراك الصلة الوثيقة التي بين الغرورة الشخصية التي يملكها كل منهم وبين ازدهار المجموع ورخائه. فليس ثمة حاجة إلى العنف مع مثل هؤلاء المواطنين لتجريدهم مما يتمتعون به من حقوق فإنهم سيدعونها هم أنفسهم تفلت من أيديهم. إذ يبدو لهم أن ممارسة الواجبات السياسية العامة عقبة كأداء تقوم في سبيل استمرارهم في رعاية مصالحهم وأعمالهم الخاصة. فإن كان المطلوب منهم أن ينتخبوا نواباً عنهم، وأن يساندوا الحكومة القائمة بما يقدمونه من خدمات شخصية، وأن يتجمعوا من أجل خدمة عامة ظنوا أنهم لا وقت عندهم يسمح لهم بشيء من ذلك؛ فهم يرضون بإتفاق ساعات فراغهم الثمينة في المشاركة في أمور لا جدوى منها لهم. فهذه هي الملامى الفارغة في نظرهم التي لا تصلح للرجال الجادين غير الهازلين المشتغلين بما هو أخطر منها في شئون الحياة. فيخيل إليهم إنما يتبعون قانون المنفعة الشخصية، ولكن فكرتهم عن هذا القانون فجة كل الفجاجة، فكى يوجهوا عنايتهم إلى ما يسمونه مصالحهم، يغفلون أهم مصلحة فيها - وهي أن يظلوا هم سادة أنفسهم.

فلما كان المواطنون الذين يكدحون لكسب رزقهم لا يحفلون بالشئون العامة، وكانت الطبقة التي يتسنى لها أن توجه ما لديها من أوقات الفراغ إلى أداء هذه الواجبات لم تعد موجودة، فقد أصبح مركز الحكومة أشبه بالشاعر. فإن حدث في مثل هذا الوقت الحرج أن هب شخص طموح قدير واستولى على أزمّة السلطة العليا في البلاد لوجد الطريق إلى كل أنواع الاغصاب مفتوحة أمامه<sup>(١)</sup>. فإن وجه اهتمامه برهة فحسب إلى ازدهار الدولة المادى فقد يعتقد أنه لم يعد بعد ذلك مطالباً بشيء قبل الدولة، فعليه قبل أى شيء آخر أن يكفل لها استقرار النظام والهدوء. فالناس الذين طغى عليهم الميل إلى المتعة الحسية يجدون عادة أن ضجيج الحرية يعكر عليهم صفو سعادتهم، وذلك قبل أن يدركوا أن الحرية هذه إنما تعمل على توفير السعادة المنشودة لهم؛ فهم يفزعون من أقل شائنة عن حدوث اضطرابات عامة تعطلهم عن ملذاتهم الصغيرة في حياتهم الخاصة، فإذا كان الخوف من الفوضى يساورهم على الدوام، فقد صاروا دائماً مستعدين لأن يندبوا حريتهم ظهرياً عند حدوث أول اضطراب.

لست أتردد بالطبع في التسليم بأن استقرار السلام العام خير عظيم، ولكنى لا أنسى، مع ذلك، أن جميع الأمم إنما رزحت تحت نير الاستعباد. باسم إقرار النظام العام. وليس

(١) يغلب على الظن أن المؤلف كان يفكر وقتئذ في يوم ١٨ برومير الشهير. الذى فيه قلب نابوليون حكومة الإدارة وجمع أزمّة الحكم كلها في يديه. وذلك عقب عودته إلى فرنسا من مصر.

من شك في أن هذا لا يؤدي بنا إلى استنتاج أن الأمم يجب أن تستين بأمر استقرار النظام العام، بل عليها ألا تجتريء به وحده وتقع. فالأمة التي لا تطالب حكومتها إلا بالسهر على الأمن والنظام، أمة مستعدة في الواقع في ذاتها، فهي لا تعدو أن تكون عبدة لرفاهيتها، وفي انتظار الرجل الذي سيكبلها بالأغلال .

هذا، وإن خوف مثل هذه الأمة من أن تستبد بها طائفة ما، لا يقل عن خوفها من أن يطفى عليها ويطش بها فرد واحد. فعندما تكون الكثرة من المواطنين منكمين في رعاية مصالحهم الخاصة وحدها، فليس لحزب من أحزابها الصغيرة أن يأس من أن تقع السلطة كلها في يديه. ففي مثل هذه الأيام، ليس نادراً أن نرى على مسرح الحوادث العالمية الفسيح، كما نراه على مسارحنا، جمهوراً عظيماً من الناس يمثله عدد صغير من الممثلين الذين يتحدثون وحدهم باسم حشد من الناس غائب أو غافل؛ فهؤلاء وحدهم هم الذين يعملون، على حين يظل سائر الناس جامدين لا ينشطون. فهم يديرون دفة البلاد وعاداتها الأخلاقية كما يحلو لهم. وعندئذ يحق لنا أن نعجب من أن نرى شعباً عظيماً يقع بين برائن فئة قليلة من أفراد ضعاف، تافهين، غير جديرين بشيء .

لقد كان من حسن حظ الأمريكيين أنهم أفلتوا إلى اليوم من جميع تلك الأخطار التي أشرت إليها. فهم من هذه الوجهة جديرون حقاً بكل إعجاب، وقد لا يوجد في العالم كله بلد به من الكسالى أقل ممن يوجدون في أمريكا حيث جميع الذين يشتغلون أكثر تلهفاً على تحسين أحوالهم والسعى وراء رفاهيتهم. ولكن، إن كانت حماسة الأمريكيين للاستمتاع بالملذات الحسية عيفة، فهي ليست على الأقل، عمياء، فاقدة التمييز، ومع أن العقل قد عجز عن أن يكبح هذه الحماسة فيهم، فإنه يوجهها ويرشدها .

يقبل الأمريكي على العناية بشئونه وأعماله الخاصة، كما لو كان لا يوجد في هذا العالم كله أحد سواه، ثم إذا به في لحظة تالية ينكب على الشؤون العامة يعني بها، كما لو كان قد نسى كل مصالحه الشخصية تلك. ففي وقت ما تحفره أطماع طاغية كلها أنانية، وإذا به في وقت آخر يبدو لك مدفوعاً بأشد أنواع الوطنية حدة وأكثرها توقداً. ولكن القلب البشري لا يمكن أن ينقسم على نفسه مثل هذا الانقسام، فسكان الولايات المتحدة يظهرون على الولاء غراماً قوياً برفاهيتهم وبالحرية معاً، حتى ليخيل إلينا أن هاتين الشهوتين قد اتحدتا في موضع ما من نفوسهم. والواقع أنهم يعتقدون أن حریتهم خير أداة وأعظم كفيل لرفاهيتهم هذه. فهم يحبون هذين الأمرين الواحد من أجل الآخر، ولا يفكرون إذن في أنهم غير مطالبين بالمشاركة في الشؤون العامة، بل على النقيض من ذلك، يعتقدون أن شغلهم الرئيسي أن يحصلوا لأنفسهم على حكومة تتيح لهم المجال للحصول على الخيرات والأموال التي يطمحون إليها ولا تحول بينهم وبين أن يستمتعوا في سلام بتلك التي حصلوا عليها من قبل .

## الفصل الخامس عشر

# العقائد الدينية توجه أفكار الأمريكيين نحو المتع الروحية من آن لآخر

في اليوم السابع من كل أسبوع تعطل الأعمال الصناعية والتجارية في طول البلاد الأمريكية وعرضها، فتمتع كل ضواء، ويعقب حركة الأسبوع وضجيجها سكون عميق. وإن شئت قلت يعقبها نوع من التأمل والخشوع، فتنطوى فيه الذات على نفسها تتأمل ما مجرى فيها. ففي هذا اليوم تقفر الأسواق ويمضى كل مواطن مع أسرته إلى بيت من بيوت الله، حيث يستمع إلى خطبة عجيبة تبدو غريبة على أذنه؛ فيحدثه الخطيب عن الشرور الكثيرة الناجمة عن الكبرياء وعن الطمع. ويذكره بضرورة كبح رغباته، وبالمتع السامية التي من خصائص الفضيلة وحدها. وبالسعادة الحقة التي ترافقها. وعندما يعود إلى بيته، لا ينكب على دفاتر أشغاله. بل على الكتاب المقدس. حيث يجد أوصافاً جلييلة مؤثرة لعظمة البارئ، وكرمه ولفخامة خليقته التي لا نهاية لها، ولما هو مقدر للإنسان من مصائر عظيمة، وما عليه من واجبات وما له من حق في الخلود.

وهكذا نرى الأمريكي قد يجلس من نفسه ساعة في بعض الأحيان، فيحمل فترة من الزمن تلك الشهوات الصغار التي تستر حياته. وتلك المصالح الزائلة التي تستغرق كل جهوده، ويندفع فوراً إلى عالم مثالي فيه كل جليل، وأزلي، صاف.

حاولت أن أبحث في موضوع آخر من هذا الكتاب عن العوامل التي ينبغي أن نعزو إليها صيانة المؤسسات السياسية الأمريكية، وبدأ لي فيه أن الدين سبب من أبرز تلك الأسباب. والآن وأنا معنى بالأفراد، أجد أن الدين لا يقل نفعاً لكل مواطن على حدة عنه للدولة في جعلها. ويبدى الأمريكيون في أمورهم العملية أنهم يشعرون بضرورة صيغ الجماعات الديمقراطية بصيغة أخلاقية مستمدة من الدين. فهذا الذي يروونه أمراً خاصاً بهم في هذا الصدد إنما هو حقيقة يجب أن تتشبع به كل أمة ديمقراطية.

ولا يساورني أي شك في أن تكوين الشعب الاجتماعي والسياسي قد يحدو بهم إلى الأخذ بمعتقدات معينة، وإلى تكوين ميول معينة، تنتشر بينهم فيما بعد في غير مشقة، وقد

تبعدهم هذه الأسباب نفسها عن بعض آراء وميول أخرى من غير أن يبدلوا أى جهد مقصود فيها، ومن غير أن يكونوا متفطنين إليها تفتناً صريحاً (إن جاز لنا هذا التعبير). إن فن المشرع كله لا يعدو أن يستشف سلفاً، وعلى نحو صحيح، ميول الشعب الطبيعية هذه، كى يعرف إن كان الواجب عليه أن يغذيها ويقويها، أم أن الضرورة تقتضيه أن يكبحها. فالواجبات الملقاة على عاتق المشرع تختلف باختلاف الأوقات، على حين أن الهدف الذى يجب أن يتجه إليه الجنس البشرى كله دائماً ثابت لا يتغير، وإن كانت الوسائل المؤدية إلى تحقيقه تتغير باستمرار.

فلو أنى ولدت فى عصر أرستقراطى، بين ظهرائى أمة فيها الثروة التى يحصل عليها بعض الناس عن طريق الميراث، وفيها يعانى البعض الآخر الفقر المدقع الذى لا علاج له، وقد حالاً كلاهما - الثراء والفقر - بين الناس وبين قيام فكرة العمل على تحسين أحوالهم الاجتماعية، واستبقيا الروح فى حالة خمول وتركز همها كله فى التأمل فى أمور الآخرة وحدها - لو أنى ولدت فى مثل هذه الأحوال لوددت أن يتاح لى أن أوقظ هذا الشعب وأمثاله إلى الشعور باحتياجاته، بأن أمضى فى البحث عن وسائل أسرع وأسهل لسد حاجاته الجديدة التى قد أيقظتها هكذا فى نفوس الناس، ولعملت عن طريق توجيه أعظم جهود المواطنين وأعنفها، إلى السعى وراء الأمور المادية ولبدلت جهودى فى أن أحتهم على السعى وراء ما فيه سعادتهم هم الخاصة. فإن حدث أن مال بعضهم هكذا إلى الإفراط فى السعى وراء جمع المال، وصاروا بذلك يبدون ميلاً مفرطاً إلى الانهماك فى الملدات الحسية - فذلك لا يفزعنى بحال من الأحوال، فلسوف تذوب هذه الحالات الخاصة وتختفى وسط الملامح العامة التى فى الجماعة كلها.

للمشترعين فى البلاد الديمقراطية شئون أخرى عليهم أن ينتهوا إليها ويهتموا بها، فالأهم الديمقراطية لها التعليم والحرية ثم ندعها وشأنها. فسرعان ما يتعلم أهلها أن يحصلوا من هذه الدنيا على كل ما تستطيع أن تقدمه إليهم من منافع، وسيعملون على تحسين كل فن من الفنون النافعة، ويعملون الحياة كل يوم أروح وأيسر وأنسب مما كانت. وستدفعهم حالتهم الاجتماعية بطبيعة الحال إلى السير قدماً فى هذا الاتجاه، ولا أخشى عليهم أن يتباطأوا فيه.

ولكن بينما يكون الإنسان مغتبطاً مسروراً بسعيه الشريف المشروع هذا، وراء كل ما فيه سعادته، يخشى عليه أن يفقد قدرته على استخدام أسمى ما فيه من ملكات، وينتهى به الأمر إلى أن يحط من شأنه نفسه، وهو يحاول العمل على تحسين كل ما حوله، وهنا موضع الخطر. ومن ثم وجب على المشترعين فى البلاد الديمقراطية وعلى جميع من فيها من الفضلاء المستيرين أن يعملوا، فى غير هواة، على السمو بنفوس المواطنين كلهم، وعلى توجيههم نحو الله. فيجب أن يتحد جميع من تهمهم مصائر المجتمع الديمقراطى ويبدلوا جهوداً جماعية متصلة لينشروا بين الناس محبة الأمور السامية واللائهائية، والميل إلى المتع المتاحة

الحلال غير المادية . فإن حدث وكان بين الآراء الذائعة في الشعب الديمقراطي شيء من هذه النظريات الخبيثة التي تهدف إلى جعل الناس يعتقدون أن كل شيء سيفنى بفناء الجسم ، وجب علينا أن نعد القائلين بهذه النظريات أعداء الشعب الطبيعيين .

هذا ، وثم أمور أخرى تجعلني أنفر من الماديين ؛ ففطرياتهم ضارة ، و اعتقادي ، وقبحهم تثير الاشمئزاز في نفسي . فإن كان في نظامهم أية فائدة لبني الإنسان ، فهي أنهم يعطونه فكرة متواضعة عن نفسه ، لكنهم لا يظهرون لنا أن الأمر كذلك ، فعندما يخيل إليهم أنهم قالوا ما فيه الكفاية للتدليل على أنهم من السوامم ، إذا بهم يبدون لنا في كبرياء واستعلاء ، كما لو كانوا قد برهنوا لنا على أنهم من الآلهة .

فالناس في جميع الأمم يعدون المادية مرضاً خطيراً من أمراض العقل البشري ، وخطر هذا المرض في البلاد الديمقراطية أشد منه في غيرها ، لأن المادية سرعان ما تندمج في تلك الرذيلة التي يعرفها القلب حق المعرفة ، في تلك الظروف . فالديمقراطية تشجع ميول الناس على إرضاء مطالب الجسد ؛ فإن هم انساقوا مع هذه الميول وأسرفوا فيها ، فسرعان ما يتجهون إلى الاعتقاد بأن كل شيء في هذا العالم لا يعدو أن يكون مادة ؛ وتسوغ لهم المادية أن يندفعوا اندفاعاً جنونياً وينكبوا على انتهاب الملذات الحسية . تلك هي الدائرة الخبيثة التي نجد الأمم الديمقراطية تندفع إلى أن تحوم حولها . فمن الخير هذه الأمم إذن أن ترى الخطر المحدق بها حتى تكف نفسها عن الاتجاه إليه .

إن غالبية الأديان وسائل عامة بسيطة وعملية لتعليم الناس مذهب خلود الروح . فهذه هي أكبر فائدة يستمدها الشعب الديمقراطي من اعتقاده . ومن ثم كان الاعتقاد أزم هذه الشعوب منه لغيرها . فإن تأصلت جذور الدين ورسخت عميقة في شعب ديمقراطي ، فحذار من أن ترعزعوها ، بل الأولى بكم أن تراقبوها بعناية ، فهي خير ميراث تلقيناه من العصور الأرستقراطية . فيجب ألا تعملوا على إبدال آراء الناس الدينية القديمة بأخرى جديدة ، خشية أن يتركوا الروح فترة من الزمن من غير اعتقاد في فترة الانتقال من القديم إلى الجديد ، فتغلب عليها إذن محبة المتع الحسية المادية وتملاً كل جوانبها .

هذا ولا شك في أن مذهب القائلين بتناسخ الأرواح ليس معقولاً بأكثر من مذهب الماديين ، ومع ذلك فإن كانت الضرورة المطلقة تقتضي الديمقراطية أن تختار بين هذين المذهبين فلست أتردد مطلقاً في القول بأن مخاطرة المجتمع أن يصبح بيمياً باعتقاده أن روح الإنسان قد تنتقل إلى جنة خنزير لأقل مخاطرة من اعتقاده أن روح الإنسان ليست شيئاً مطلقاً . فالاعتقاد بوجود مبدأ روحاني فوق الحس ، وخالده ، إذا ما أخذ فترة معينة من الزمن مع المادة ، لاغنى عنه لعظمة الإنسان ؛ فنتائجه ستكون رائعة كل الروعة إذا لم يقترون بمبدأ الثواب والعقاب «و كان هذا المبدأ لا يقول بأكثر من أن المبدأ الإلهي الذي في الإنسان سيعود إلى الله ويندمج فيه ، أو ينتقل إلى جنان مخلوق آخر ، أيًا كان هذا

الخلوق ، فيفيض عليه الحياة . إن الذين يؤمنون بمثل هذا المذهب الناقص لا يزالون يعدون الجسم هو الجانب الثانوى الوضيع من طبيعتهم ، بل إنهم يزدرونه حتى عندما يدعون لمطالبه على حين أن لديهم احتراماً طبيعياً ، وإعجاباً جلياً بالجانب غير المادى من الإنسان ، وإن كانوا يابون أحياناً أن يدعوا لسلطانه . ففى هذا ما يكفى لأن يجعل لآرائهم وليوهم صفات سامية ، ويجعلهم يتجهون من تلقاء أنفسهم نحو الوجدانات الطاهرة والأفكار السامية من غير أن يكون لديهم دافع من أية مصلحة شخصية .

لسنا نعرف على وجه اليقين ، إن كان لدى سقراط وأتباعه أية آراء محددة ثابتة عما قد يحل بالإنسان فى الآخرة ؛ ولكن النقطة الوحيدة فى اعتقادهم التى استمسكوا بها كل الاستمساك ؛ وهى أن الروح لا تشترك فى شىء مع الجسم ، وأنها تظل حية بعد فثائه ، كان فيها ما يكفى لنح الفلسفة الأفلاطونية ذلك الطموح السامى الذى تميزت به كل سائر الفلسفات .

ويتضح من مؤلفات أفلاطون أن كثيرين من الكتاب الفلاسفة ، سواء كانوا من معاصريه أو ممن تقدموه ، يؤمنون بالمادية ، ولكن لم يصلنا شىء مما كتبه ؛ أو بعبارة أدق لم يصلنا منه سوى شذرات قليلة . وهذا ما يحصل فى كل عصر من العصور تقريباً ، فالكثرة الكبرى من مشاهير الأدباء يتشبثون بمذهب من مذاهب الفلسفة الروحية . ففطرة الجنس البشرى ونزعاته تتعلق بهذه المذاهب الروحية ، فهى كثيراً ما تنجيهم ، على الرغم منهم ، وترفع أسماء المدافعين عنها مكاناً علياً فوق تصاريف الزمن . فيجب ألا يتوهم أحد إذن أن غرام الناس بإرضاء حاجاتهم الجسمية والمادية فى أى عصر ، وتحت أى شكل من أشكال الحكم السياسية ، والآراء التى يؤدى إليها هذا الغرام ، يمكن أن ترضى شعباً بأسره . إن قلب الإنسان لأكبر من ذلك ، فهو يتسع للميول إلى الأمور الدنيوية ؛ وللنواحي الدينية معاً ، وفى وقت واحد . وقد يبدو أحياناً أنه يتشبث بناحية واحدة منهما كل التشبث ، ولكنه لا يلبث طويلاً حتى يعود ويفكر فى الناحية الأخرى .

إن كان من السهل أن ندرك أنه من الأهمية بمكان أن تنتشر الآراء الروحية فى العصور الديمقراطية بوجه خاص ، فليس من السهل أن نحدد الوسائل التى يستطيع بها أولو الأمر فى هذه الأمم جعل هذه الآراء تسود . فلست من الذين يعتقدون بازدهار الفلسفات الحكومية ولا ببقائها . أما من حيث الأديان الرسمية فقد كان اعتقادى دائماً أنها ، وإن كانت تخدم مصالح السلطة السياسية فى بعض الأحيان ، خدمة مؤقتة ، فستصبح إن عاجلاً أو آجلاً خطراً عظيماً على الكنيسة . ولا أنا أوافق الذين يرون أنه من المرغوب فيه أن نمنح ، بطرق غير مباشرة ، خدام الدين أى نفوذ سياسى تاباه عليهم قوانين البلاد ، بقصد رفع مكانة الدين فى نظر الشعب ، وجعلهم يحترمون مذاهب الكنيسة ويكرمونها . وإنى لأشعر كل الشعور بالأخطار التى تكاد تكون محتومة ، والتى تحدى بالمعتقدات الدينية

عندما يشترك رجال الكنيسة في الشؤون العامة ؛ وإنى لمقتنع كل الاقتناع بأن الدين يجب أن يسان بأى ثمن في قلب البلاد الديمقراطية حتى ألى لأوتر أن أرى رجال الدين محكفين في بيوت الله على أن يسمح لهم بتجاوزها .

فما الذى يتبقى إذن في أيدي أولى الأمر من الوسائل التى تمكن لهم من أن يعيدوا الناس إلى الإيمان بالآراء الروحية أو ليجعلوهم يتشبثون كل التشبث بالدين الذى يوحى إليهم بها ؟

إنى أخشى أن تكون إجابتى عن هذا السؤال مما تؤذيني في عيون السياسيين ، فإنى أعتقد أن الوسيلة الوحيدة الناجحة التى تستطيع الحكومات أن تستخدمها ، لوضع مبدأ خلود الروح في المكانة التى تتيح له ما يليق به من احترام - هذه الوسيلة هى أن تسلك (هذه الحكومات) دائماً كما لو كانت هى نفسها تؤمن بهذا المبدأ ؛ وفي اعتقادى أن الحكومات لاتستطيع أن تأمل أن تعلم الجماعة في جملتها أن تعرفه وتحبه وتراعيه في الشؤون الصغرى من شؤون الحياة ، إلا بأن تحرص كل الحرص على مراعاة الأخلاق الدينية في الشؤون الكبرى منها .

## الإفراط في الاهتمام بالسعادة الديوية قد يؤدي إلى إضعافها

بين العمل على ترقية الروح والعمل على ترقية كل ما يتعلق بالجسم، صلة وثيقة، أوثق مما يظنه الناس عادة، فقد يترك المرء هذين الأمرين منفصلين بعضهما عن بعض ثم يواجه كلا منهما على حدة، وعلى الولاء. ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يفصلهما فصلاً تاماً من غير أن يؤدي ذلك إلى اختفاء الاثنين عن نظره في النهاية .

إن للحيوان ما لنا من الحواس تماماً ، كما أن له نفس ما لنا من «شهوات» ، فليس ثم «شهوات» جنائية عامة في الإنسان وليست عامة في الحيوان ، كذلك ، فما توجد بذوره منها ، على الأقل ، في القبط توجد في بنى الإنسان كذلك ، فكيف حدث أن صار الحيوان إذن لا يستطيع أن يرضى غير احتياجاته الأولية على حين استطاع الإنسان أن ينوع مسرته ويزيدها تنوعاً وزيادة لا تقفان عند حد ؟

إن ما يجعلنا نتفوق على الحيوان هو أننا نستخدم عقولنا في الحصول على المنافع المادية التي توجهه إليها غرائزه وحدها . فالملك يقوم بتعليم الجانب الحيواني من الإنسان فن إرضاء غرائزه ومشتياته . فمن أجل أن الإنسان قادر على أن يسمو على مطالب الجسد ، وقادر على احتقار الحياة ذاتها - وهو ما ليس عند الحيوان أقل ذرة منه - صار في مقدرته أن يضاعف تلك الأشياء نفسها المتعلقة بالجسم لدرجة لا يستطيع ما دون الجنس البشرى من أجناس تصورها .

فكل ما يسمو بالروح ، وينميها ، ويوسعها ، يزيدها قدرة على النجاح حتى في المشروعات التي لا تخصها في قليل أو كثير . ومن جهة أخرى ، فكل ما يقلل من قوتها أو يحط من قدرها ، يضعفها عن أداء كل غرض من الأغراض ، كبيرها وصغيرها ، ويهدد يجعلها عاجزة عن القيام بأى منهما تقريباً . ومن ثم وجب أن تظل الروح عظيمة وقوية حتى ولو كانت لا توجه قوتها وعظمتها من حين إلى حين إلا إلى خدمة الجسد وحده . فإن حدث وقنع الناس بالأغراض المادية وحدها ، فمن الجائز أن يخسروا تدريجياً القدرة على إنتاجها ، فينتهى بهم الأمر أن يستمتعوا بها من غير أى تمييز ، ومن غير أى تحسين فيها ، شأنهم في ذلك شأن الحيوان .

## الفصل السابع عشر

# من الأهمية بمكان أن يتجه النشاط الإنساني إلى الغايات البعيدة المدى عندما تتساوى الأحوال الاجتماعية وينتشر التشكك بين الناس

في عصور الإيمان يقوم هدف الحياة الأقصى فيما وراء هذه الحياة، فلا غرو أن كان أهل هذه العصور يعودون أنفسهم بطبيعة الحال، بل وعلى غير إرادة منهم تقريباً، على أن يظلوا يوجهون أنظارهم سنوات كثيرة إلى شيء ثابت يجعلونه نصب أعينهم على الدوام، فهم يتعلمون تدريجياً، وبشكل غير محسوس، أن يكفوا أنفسهم عن طائفة من الرغبات الصغيرة العابرة كي يتيسر لهم بطريقة أوفى إرضاء تلك الرغبة العظمى الدائمة التي تمتلكهم، وعندما يشتغل هؤلاء الناس بشئون هذه الحياة الدنيا تتجلى هذه العادات ذاتها في سلوكهم، فيقيمون لأنفسهم في هذه الحياة هدفاً عاماً معيناً يوجهون إليه كل أفعالهم؛ فهم لا يسعون كل يوم وراء رغبة جديدة، بل إن لهم لمقاصد معينة ومحدودة لا يملون أبداً من السعي وراءها.

وهذا يفسر لنا السبب في أن الأمم المتدنية كثيراً ما تنجز أعمالاً تبقى على الزمان، فيبنا الناس فيها يفكرون في شئون الآخرة إذا بهم يقفون على سر النجاح العظيم في هذه الدنيا. فالأديان تعود الناس عادة عامة فتجعلهم يسرون في أعمالهم ونصب أعينهم فكرة الدوام والخلود لا تفارقهم، فهم من هذه الوجهة، ليسوا أقل نفعاً للسعادة في هذه الدنيا منهم لها في الآخرة؛ وتلك ميزة من أهم ميزاتهم السياسية.

ولكن كلما خبا نور الإيمان في الإنسان قصر مدى نظره، فكأنما غاية هذا الإنسان تزداد كل يوم قرباً من متناوله. فحينما يعتاد الناس ألا يفكروا فيما سيحل بهم في الحياة الأخرى، فإنهم لا يلبثون أن يرتدوا بسرعة، وبشكل غريب، إلى عدم المبالاة بما سيأتيهم به المستقبل، وهذا اتجاه يتفق كل الاتفاق مع النزعات البشرية، كما لا يخفى، فعندما لا يعود

الناس يعلقون آمالهم الكبار بأهداف بعيدة المدى فإنهم يسارعون بالطبع إلى إرضاء أحظ رغباتهم، فما أن يستولى عليهم اليأس من أن يعيشوا إلى الأبد حتى يتجهوا إلى أن يعملوا وكأنهم سيموتون غداً. ففي عصور التشكك يخشى من أن يستسلم الناس دائماً إلى رغباتهم اليومية العارضة ويتعدوا عن السعى وراء كل شيء لا يمكن الحصول عليه إلا بعد مجهود طويل متصل؛ وبذلك لا ينشئون شيئاً عظيماً باقياً وهاذاً.

فإن أصبحت أحوال مثل هذا الشعب الاجتماعية ديمقراطية في هذه الظروف ازداد ذلك الخطر الذي أشرت إليه واشتد. فعندما يظل كل امرئ يسعى باستمرار وراء تغيير مركزه؛ وعندما يكون ميدان المنافسة واسعاً كل السعة ومفتوحاً لكل من شاء أن يلجحه؛ وعندما تجمع الثروات وتتفق بين عشية وضحاها وسط ضجيج الديمقراطية وصخبها؛ عندما يكون الحال على هذا النحو داعيت عقول الناس رؤى وأحلام عن ثروات مفاجئة تهبط عليهم من السماء، فتأتي بسهولة وتضيع كذلك بسهولة. هذا، وإن عدم استقرار المجتمع نفسه، ليساعد على اضطراب رغبات الإنسان وعدم استقرارها الطبيعي فيه. وعندئذ يبدو هم الحاضر وسط هذا التذبذب الدائم في حظوظهم شيئاً عظيماً، يغشى المستقبل ويخفيه عن العيون، فلا يعودون يفكرون إلا في غدهم فحسب.

ففي البلاد التي يجتمع فيها، لسوء الحظ، الزندقة والديمقراطية ينبغي للفلاسفة ولأولى الأمر الذين بيدهم الحكم أن يعملوا باستمرار ما في وسعهم كي يجعلوا أهداف أعمال الإنسان أهدافاً بعيدة، وراء دائرة أفقهم المباشر، فتلك مهمتهم الكبرى. فإذا راعى العالم الأخلاق روح بلاده وروح عصره عرف كيف يدافع عن اتجاه مبادئه. عليه ألا يألو جهداً في أن يوضح لمعاصريه، حتى وهم وسط تلك الحركة الدائبة التي تجرى حولهم أنهم يستطيعون في يسر أكبر مما يظنون، أن يتصوروا وينفذوا مشروعات طويلة الأجل. وعليه أن يوضح لهم كذلك أنه مهما تغيرت ملامح البشر. وتبدل مظهرها، فالطرق التي يستطيع بها الناس أن يعملوا لما فيه سعادتهم في هذه الدار الدنيا لا تزال هي هي. ولا يستطيع الإنسان في الأمم الديمقراطية، ولا في سواها أن يرضى ما فيه من شهوة عارمة متأججة إلى السعادة، إلا بجهد متصل دائب يبذل ضد الشهوات الصغيرة الخاصة الكثيرة العدد التي تتلجج في نفسه.

هذا، وليس واجب الحكم هنا بأقل من ذلك وضوحاً ولا تحديداً. فمن الأهمية البالغة في كل عصر من العصور، أن يجعل الذين بيدهم حكم الشعوب المستقبل نصب أعينهم دائماً، وهذا ألزم في عصور الديمقراطية والتشكك منه في أي عصر آخر. فإذا ما سلك الزعماء في البلاد الديمقراطية هذا المسلك لم يجعلوا الشؤون العامة تزدهر فحسب، بل إنهم ليعلمون بقدوتهم الطيبة، الأفراد العاديين فن إدارة شئونهم الخاصة.

وعليهم قبل كل شيء أن يعملوا ما في وسعهم لاستبعاد عنصر المصادفة من ميدان

السياسية . فترقية أحد رجال البلاط غير الأكفاء ترقية فجائية لاتحدث إلا أثراً عابراً ( في البلاد الأرستقراطية ) لأن جملة المؤسسات والمعتقدات التي في الأمة تحمل الناس عادة على أن يتقدموا في تودة وبطء في المسالك التي لا يستطيعون أن يجيدوا عنها أو يفادوها . ولكن لاشيء أبلغ ضرراً من حدوث مثل هذه الأمور ، القائمة على المحسوية ، في شعب ديمقراطي ، فهي تعجل بدفع ميول هذا الشعب بقوة إلى أن ينزلق في منحدر كل شيء كان يعمل على أن يجره ليهوى فيه . ففي عصور التشكك والمساواة بوجه خاص ، يجب أن نحرض كل الحرص على تجنب إحلال محسوية الشعب أو محسوية الحاكم التي قد يحظى بها المرء مصادفة ، أو يحرمها كذلك ، أن تحل أبدا محل العلم ومؤهلاته أو محل الخدمات الثابتة . فمن المرغوب فيه أن كل ترقية - يجب أن تبدو أنها جاءت ثمرة مجهود بذل وعمل أنجز ، حتى لا تكون ثمّة عظمة سهلة النال ويمكن الحصول عليها من غير كد ولا عرق ، وأن تكون المطامح قد ظلت موجهة أمدا طويلا تعمل في سبيل غرض معين قبل أن يتحقق لها مناله .

ويجب أن تعمل الحكومات ما في وسعها لتعيد الناس إلى محبة المستقبل ، تلك المحبة التي لم تعد الأديان ولا الأحوال الاجتماعية توحى إليهم بها ، ويجب عليها ، من غير أن تقول ذلك صراحة ، أن تعلم الجماعة بشكل عملي ، كل يوم أن الثروة والشهرة والقوة لا تكون إلا جزاء العمل ، وأن النجاح العظيم لا يكون إلا بعد سعى متصل وراء تحقيق الرغبات البعيدة المدى ، وأن لاشيء يدوم إلا إذا جاء نتيجة العمل والكدح .

فإذا ما تعود الناس أن يستشفوا من بعيد ما يحتمل أن يصيبهم من هذه الحياة الدنيا ، وأن يعيشوا على الأمل ، لم يعودوا يكتفون بأن يحصروا تفكيرهم كله في نطاق أعمارهم المقدرة في هذه الدنيا ، بل يكونوا مستعدين دائماً لأن يجتازوا حدودها ويتطلعوا بأنظارهم إلى ما وراءها . ولا يساورني أى شك في أن أفراد المجتمع ، إذا ما تدربوا على أن يفكروا في مستقبلهم في هذه الحياة الدنيا ، سيقترّبون شيئاً فشيئاً وعلى غير وعى منهم من المعتقدات الدينية . وهكذا نرى أن الوسيلة التي تجعل الناس يعيشون من غير دين ، إلى حد ما ، قد تكون هي بعد كل شيء ، الوسيلة الوحيدة التي بقيت لنا لإعادة الناس إلى الإيمان بطرق طويلة متعرجة غير مباشرة .

## الفصل الثامن عشر

# كل مهنة شريفة محترمة في نظر الأمريكيين

لا توجد في الأمم الديمقراطية ثروات موروثية، فكل إنسان فيها يعمل لكسب رزقه، أو قد عمل فعلاً، أو عمل والداه من قبل، ومن ثم كانت فكرة العمل والكدح تخطر على العقل من كل ناحية على أنها حالة الوجود البشري الضرورية الطبيعية الشريفة، فليس العمل بالأمر المستهجن عند مثل هذه الشعوب، وإنما هو موضع شرف واحترام، فليس التحزب ضده، بل في جانبه. فالرجل الغني في الولايات المتحدة يعتقد أنه مدين للرأى العام بتخصيص أوقات فراغه إلى نوع من الأعمال الصناعية أو التجارية أو إلى الاشتغال بالشئون العامة، فعار عليه إن هو قصر حياته كلها على أن يعيش فحسب. فللتخلص من التزام العمل هذا، قام عدد كبير من ثروة الأمريكيين يتجهون إلى أوروبا حيث يجدون بضع بقايا متخلفة من المجتمع الأرستقراطي منتشرة في شتى النواحي، وحيث لا يزال الكسل بعدد بينهم موضع إجلال وتكريم.

لا تضع المساواة في الأحوال الاجتماعية فكرة العمل ذاتها في موضع تكريم فحسب، بل إنها لترفع شأن فكرة كل عمل يؤدي إلى ربح مادي.

أما في الأمم الأرستقراطية، فليس العمل ذاته هو المحتقر، وإنما المحتقر هو ذلك النوع من العمل الذي يراد به الربح المادي؛ فالعمل في ذاته شريف عندما يقوم به المرء مدفوعاً بالمطامح والفضيلة. ومع ذلك فكثيراً ما يحدث في المجتمع الأرستقراطي، ألا يكون من يعمل حباً في شرف العمل غير شاعر بجاذبية الربح وروغته، فهاتان الرغبتان لا تتجزآن إلا في أعماق نفسه، فتراه يحرص على أن يخفى عن العيون النقطة التي يتلاقيان فيها، بل إنه ليسره أن يخفيها حتى عن نفسه هو، فليس في البلاد الأرستقراطية سوى قلة من الموظفين العامين لا يتظاهرون بأنهم إنما يخدمون بلادهم من غير أى دافع من المصلحة الشخصية، فليست مرتباتهم سوى شيء عارض، لا يفكرون فيه إلا قليلاً، بل إنهم يتظاهرون دائماً بأنهم لا يفكرون فيه مطلقاً. وهكذا يحتفظون بفكرة الربح منفصلة عن فكرة العمل، ومهما أمكن الجمع بينهما في الواقع فالناس لا يفكرون فيهما معاً.

أما عند الشعوب الديمقراطية فهاتان الفكرتان، على العكس مما عند الأمم الأرستقراطية، متحدتان دائماً اتحاداً محسوساً. ولما كانت الرغبة في الرفاهية رغبة عامة في جميع الناس، وكانت الثروات قليلة أو متقلبة، وكل امرئ يود أن يزيد مصادره المالية أو أن يزود أبناءه وذريته بمصادر أخرى جديدة، فقد صار الناس يرون في وضوح أن المكسب هو وحده الذي يحفزهم إلى العمل، فإن لم يكن وحده، فهو على الأقل واحد من عوامل عدة تدفعهم إلى العمل. وحتى أولئك الذين لا يحفزهم أساساً سوى الشهرة وبعد الصيت يعرفون بالضرورة كل المعرفة فكرة أنهم ليسوا مدفوعين إلى العمل بهذا الحافز وحده، ويستكشفون أن الرغبة في الحصول على المال تختلط في أذهانهم بالرغبة في جعل الحياة زاوية رائعة.

فحينما يعتقد أعضاء الجماعة كلهم: أن العمل ضرورة شريفة من ضرورات أحوال البشر؛ ومن جهة أخرى، حينما يقوم الناس بالعمل وقصدتهم كله أو بعضه الحصول على الربح، زالت تلك المسافات الشاسعة التي تفصل بين الحرف والمهن المختلفة في المجتمعات الأرستقراطية. فإن لم يكونوا جميعاً متشابهين، فتم ناحية واحدة، على الأقل، يشاركون فيها كلهم. فالناس في كل مهنة يعملون فيها من أجل المال. فالأجر أمر يشترك فيه الناس أجمعون، وإنه ليضفي عليهم مظهراً من مظاهر الوحدة والمثالب.

وهذا يفسر لنا آراء الأمريكيين في احترام المهن المختلفة. فالمرء لا يجرد نفسه في أمريكا منحطاً لأنه يشتغل، فكل الناس حوله يشتغلون مثله، وهو ليس ذليلاً لأنه يعمل بأجر، لأن رئيس الولايات المتحدة نفسه يعمل كذلك نظير أجر يتأوله، فهو يستأجر ليأمر، كما أن الخادم يستأجر ليخدم ويطيع الأوامر. فكل الحرف والمهن تتطلب في أمريكا كدحاً يزيد أو يقل، وتدر ربحاً كبيراً أو قليلاً، ولكنها ليست عالية أبداً، ولا منخفضة أبداً. فكل مهنة شريفة ومحترمة.

## الفصل التاسع عشر

# معظم الأمريكيين يعملون في المهن الصناعية

ربما كانت الزراعة هي الفن الوحيد بين سائر الفنون النافعة الذي يتقدم ببطء شديد في البلاد الديمقراطية، حتى إنها لكثيراً ما تبدو فنا جامداً لا يتقدم، على حين تتقدم المهن الأخرى كلها بخطى واسعة نحو الكمال. ومن جهة أخرى تؤدي معظم الميول والعادات التي تتولد من تساوى الناس في الأحوال الاجتماعية، تؤدي بهم بطبيعة الحال إلى الاشتغال بشئون التجارة والصناعة.

لنفرض أن رجلاً نشيطاً حراً مستيراً، لديه ما يكفيه من وسائل العيش؛ ونفرض تحيish مع ذلك بالكثير من الرغبات، فهذا الرجل المفروض، أفقر من أن يحيا حياة الكسل والدعة، وغنى في الوقت نفسه الغنى الذي يشعره بأنه بعيد عن تناول الحاجة والفاقة؛ فلا غرو إن اتجه فكره إلى النظر فيما يحسن أحواله. لأنه أصبح يميل إلى تلك المتع المادية التي يميل إليها آلاف الناس حوله، وقد أخذ فعلاً يتمتع بها وأصبح يتلهف على الاستزادة من الوسائل التي تمكن له من الحصول عليها بشكل أتم. ولكن العمر ينقضى، والوقت قصير، فماذا يصنع هو إذن؟ إن الزراعة تعده بثمرات لجهوده تكاد تكون يقينية، ولكنها بطيئة، والناس لا يثرون بها من غير جهد وعمل كادح، فهي لا تصلح إذن إلا لمن يملكون ثروة تفيض عن حاجاتهم، أو للذين يدفعهم الفقر إلى القناعة بما يسد الرمق. وسرعان ما يوطن هذا الرجل المفروض عزمه على أن يتخذ له حرفة أخرى فيبيع قطعة الأرض التي عنده ويغادر مسكنه، ويغامر بالاتحاق بمهنة خطيرة ولكنها تدر عليه أرباحاً طيبة.

والجماعات الديمقراطية حافلة بمثل هذا النوع من الناس، وإن عددهم ليزداد بازدياد المساواة في الأحوال الاجتماعية فيها. فالديمقراطية لا تزيد عدد الرجال العاملين فحسب، بل إنها لتجعلهم يفضلون نوعاً معيناً من العمل على آخر. فبينما هم تنفرون من الزراعة، إذا بها تتخهم على الاتحاق بالعمل في التجارة والصناعة.

هذا وتجلى هذه الروح نفسها واضحة حتى في أوسع الناس ثراء في مثل هذا المجتمع،

فهما أثرى الرجل في البلاد الديمقراطية ، فإنه يظل مع ذلك نهماً ، يقول : هل من مزيد ، فهو يعرف أنه أقل ثراء مما كان عليه والده ، ويخشى أن يكون أولاده أقل ثراء منه . فلا غرو أن كان معظم الأغنياء الذين في البلاد الديمقراطية يرغبون باستمرار في الاستزادة من الثروة ، حتى صاروا يولون وجوههم بطبيعة الحال شطر التجارة والصناعة ، فهما في نظرهم أسرع الوسائل وأنجحها إلى ما يصبون إليه من ثراء . وهم في هذه الناحية يشتركون مع الفقراء في نزعاتهم الفطرية ، من غير أن يشعروا مثلهم بالعوز والحاجة ؛ ولعل الأحرى بنا أن نقول إنهم مدفوعون بأقوى دوافع الحاجة ، أي بدافع الخوف من الفشل في هذه الدنيا .

فالأغنياء في البلاد الأرستقراطية هم الذين ييدهم الحكم كذلك ؛ فانشغالهم بالمسائل العامة الرئيسية باستمرار ، يعدهم عما تتطلبه شئون الصناعة والتجارة من الاهتمام . ومع ذلك فإن حدث أن وجه أحدهم عنايته إلى الأعمال قامت في سبيله إرادة الجماعات التي ينتمى إليها تمنعه من المضي فيما اختار ، فمهما تشكى الناس من حكم الغالية العديدة فإنهم لا يستطيعون أن يتخلصوا من نيره تماماً ، فحتى بين الهيئات الأرستقراطية التي تأتي بكل عناد أن تعترف بما للأغلبية القومية من حقوق ، قد تتكون غالبية خاصة تتولى بنفسها حكم سائر الناس .

وفي البلاد الديمقراطية ، حيث لا يعد المثال سبباً لتولى صاحبه المناصب السياسية ، بل كثيراً ما يكون السبب في إبعاده عنها ، لا يعرف الأغنياء كيف يفيدون مما لديهم من الوقت الفراغ . وعندئذ تدفعهم عوامل شتى إلى العمل والنشاط ؛ ومن هذه العوامل قلق رغباتهم ، وعظم مطامعهم ، وسعة مواردهم ، وميلهم إلى كل غريب خارق للعادة ؛ وهو ميل كثيراً ما يشعر به معظم الذين ارتفعوا عن المستوى العام للشعب بأية وسيلة كانت . فالتجارة هي الطريق المفتوح أمام هؤلاء الأغنياء ، وليس ثمة شيء أعظم منها ولا أروع في البلاد الديمقراطية ، فهي تسترعى انتباه الناس ، وتملاً خيال الجماهير ؛ فإليها يتجه أصحاب الهمم النشيطة . وليس ثمة شيء يستطيع أن يمنع الأغنياء من الاشتغال بالأموار التجارية ، فلا تحزباتهم الخاصة ، ولا تحزبات غيرهم يمكن أن تقف في سبيل اشتغالهم بها . هذا ، والأغنياء في البلاد الديمقراطية لا يكونون أبداً هيئة معينة ، لها آدابها الخاصة بها في السلوك ، ولها نظمها ولوائحها . فالآراء الخاصة بطبقته لا يمكن أن تحول بينهم وبين الاشتغال بالتجارة ، والآراء العامة الدائمة في وطنهم تستحثهم إلى الاشتغال بها . وزيادة على ذلك فإن كانت الثروات الضخام التي في جماعة ديمقراطية ترجع إلى نمو التجارة ، فلا بد من توالي أجيال عدة قبل أن يترك أصحاب هذه الثروات عادة اشتغالهم بالأعمال ، صناعية كانت أو تجارية ، تركاً تاماً .

وإذا كان الأغنياء في البلاد الديمقراطية مضطرين إلى الاقتصار على الدائرة الضيقة التي تركها لهم السياسة ، اندفعوا من كل جانب يغامرون في المشروعات التجارية ، حيث

يستطيعون أن يزيدوا ميزاتهم الطبيعية ويستخدمونها . والحق إنا لنستطيع ، حتى بما في مشروعاتهم الصناعية الكبرى من جرأة وضخامة ، أن نعين ذلك القدر الضئيل الذى تناله الصناعات الإنتاجية منهم ، لو أنهم كانوا قد ولدوا في بلاد أرسطراطية .

وتم ملاحظة شبيهة بهذه تصدق كذلك على جميع الذين يعيشون في بلاد ديمقراطية سواء كانوا أغنياء أو فقراء . فأولئك الذين يعيشون وسط التقلبات الديمقراطية يرون أمام أعينهم باستمرار صورة الحظ والمصادفة ، فينتهى بهم الأمر أن يميلوا إلى جميع المشروعات التى يلعب فيها الحظ دوراً ظاهراً . ومن ثم اتجه الناس جميعاً إلى العمل في التجارة ، لالما تعددهم به من أرباح فحسب ، بل لأن العمل فيها مثير باستمرار .

لم يمض على تحرر الولايات المتحدة الأمريكية من الاستعمار البريطانى سوى نصف قرن . فعدد الثروات الضخمة فيها لا يزال قليلاً ، ورؤوس الأموال نادرة . ومع ذلك لم يتقدم شعب في العالم خطوات سريعة في التجارة والصناعة مثلما تقدم الشعب الأمريكى ، وهم ينشئون الآن ثانياً دولة بحرية في العالم ؛ وبالرغم من أن مصنوعاتهم تواجه عقبات طبيعية كأداء يشق التغلب عليها ، فهذه العقبات لم تحل بينهم وبين أن يتقدموا كل يوم خطوات واسعة .

ففى الولايات المتحدة تنفذ أضخم المشروعات الصناعية والتجارية في سهولة ويسر ، فجميع الأهالى يشتغلون بالصناعات المنتجة ، ولا يتوانى أفقر أعضاء الجمهورية ، وأوسعهم ثراء في ضم جهودهم بعضهم إلى بعض كى يتضافروا على تحقيق هذه الأغراض . فلا غرو إن كان الغريب يدهش دائماً من أن يرى الأعمال العامة الجسيمة التى تضطلع بتنفيذها أمة لا أثرىاء فيها - إن صح لنا هذا التعبير . فالأمريكيون لم يصلوا إلا بالأمس القريب إلى الأقاليم التى يقطنونها . وهامهم قد غيروا وجه الطبيعة كله لمصلحتهم ، فوصلوا نهر هدسن بنهر الميسيسيبى ، وجعلوا المحيط الأطلسى يتصل بمخيلج المكسيك عبر مسافة الخمسمائة فرسخ التى تفصل بين البحرين . هذا وإن أطول الخطوط الحديدية التى مدت إلى اليوم ، مدت في أمريكا .

ولكن الذى يثير دهشتى في الولايات المتحدة أكثر من غيره ، ليس جلال بعض المشروعات الرائعة ، بل عدد تلك المشروعات الصغيرة التى ينفذونها ، وهو عدد لا يحصى . فكل المزارعين في الولايات المتحدة ، أو جلهم ، يجمعون بين الزراعة وحرفة أخرى ، بل إن معظمهم ليجمعون من الزراعة نفسها تجارة . ويندر أن يحدث في أمريكا أن يستقر مزارع في الأراضى التى يفلحها استقراراً دائماً ولا سيما في أراضى الغرب البعيد حيث يقوم المزارع باستصلاح الأرض وحرثها بنية أن يعود ويبيعها ، لاليتولى زرعها بنفسه ؛ وقد ينشئ بيتاً في الضيعة بأمل أن يبيعه بثمن طيب عندما تتبدل أحوال البلاد من جراء تزايد عدد السكان .

ففى كل سنة يصل إلى الولايات الجنوبية أفواج كثيرة من الناس من الشمال ليستقروا في البقاع التي يزرع فيها القطن وقصب السكر . فهؤلاء الأقوام يزرعون الأرض على نحو يجعلها تنتج لهم في بضع سنين ما يدر عليهم الأرباح الوفيرة التي تجعلهم أغنياء حقاً . ومع هذا فهم لا يزالون يتطلعون إلى الوقت الذي يسمح لهم فيه بالعودة إلى وطنهم ليستمتعوا فيه بما أصابوا من أموال . وهكذا نرى الأمريكيين ينقلون خبرتهم بالأعمال ( التجارية والصناعية ) إلى الشؤون الزراعية ، وأن غرامهم بالتجارة ليتجلى كذلك في سائر الحرف الأخرى .

وهم يتقدمون بخطى واسعة في كل ميدان من ميادين الإنتاج لأنهم يكرسون لها كل جهودهم ؛ ولهذا السبب عينه أصبحوا معرضين لأزمات حادة لم يكونوا يتوقعونها . وإذا كانوا يشتغلون جميعاً بالتجارة فقد صارت شؤونهم التجارية تتأثر بشتى العوامل المختلفة المعقدة كل التعقيد . حتى استحال عليهم التكهن بما قد يقوم في سيولهم من عقبات . ولما كانوا يشتغلون بالصناعات والحرف المنتجة فأقل صدمة تصيب الأعمال تعرض الثروات الخاصة كلها للارتباك . وتعرض الدولة ذاتها للخطر في الوقت نفسه . وفي اعتقادي أن تكرار حدوث هذا الذعر التجارى مرض متوطن في الأمم الديمقراطية في عصرنا الحاضر . ولا شك في أن التخفيف من أخطاره أمر ميسور . أما الشفاء منه فمتعذر . لأنه لم ينشأ في ظروف عارضة بل نشأ في أمزجة هذه الأمم ذاتها .

### قد تؤدي الصناعة إلى قيام أرستقراطية

أوضحنا فيما سبق أن الديمقراطية تعاون على تقدم الصناعات الإنتاجية ، وتزيد عدد المشتغلين بها زيادة لا تقف عند حد . وسنين الآن الطريق الجانبية التي قد تمكن لرجال الصناعة من أن يعيدوا هم بدورهم الناس إلى الأرستقراطية .

فمن المقرر أن العامل الذي يظل يعمل كل يوم في إنجاز تفاصيل جزئية معينة لا تتغير سيؤدي به عمله هذا إلى إنتاج السلعة في النهاية بطريقة أيسر ، وفي زمن أقصر ، وبتكاليف أقل . ومن المقرر كذلك ، أن تكاليف إنتاج السلع المصنوعة تقل بحسب مدى استعداد المصنع الذي يخرجها ، وبحسب مقدار رأس المال المستثمر فيه . هذه حقائق معروفة من قديم الزمان ، ولكن الأدلة على سدادها لم تقم إلا في عصرنا الحاضر . فقد طبقت تلك الحقائق فعلاً على أنواع كثيرة من الصناعات البالغة الأهمية ، وستطبق تدريجياً على ما هو أقل منها شأناً . ولست أعرف شيئاً أجدر باستدعاء المزيد من اهتمام المشتغلين أكثر من هاتين البديتين الجديتين من بدييات علم الصناعة .

فعندما يكون العامل مكلفاً أن يعمل باستمرار في صنع جزء واحد فحسب من سلعة معينة لا بد أن ينتهي به الأمر إلى اكتساب مهارة فائقة في أداء هذا العمل ، ولكنه يفقد في الوقت نفسه قدرته على استخدام عقله في توجيه العمل في جملته . فهو يزداد كل يوم مهارة ويقل اجتهاداً ، حتى يحق لنا أن نقول فيه إنه كلما تحسن عاملاً انحط إنساناً . فما عسى أن يتوقع الناس من رجل أنفق عشرين سنة من عمره في صنع رؤوس الدبابيس مثلاً ؟ وفيه ينتظر منه أن يستخدم ذلك العقل الإنساني الجبار الذي كثيراً ما هز العالم ، إلا في البحث عن طريق أمثل لصنع رؤوس الدبابيس ؟ فبعد أن يسلخ العامل شطراً كبيراً من عمره في العمل بهذه الطريقة تصبح أفكاره كلها محصورة في موضوع عمله اليومي هذا ، ويتخذ جسمه عادات معينة ثابتة لا يستطيع أبداً أن يقلع عنها ، وجملة القول أن مثل هذا العامل لم يعد ملك نفسه ، بل ملك المهنة التي اختار العمل فيها . وعبثاً تحاول القوانين ، وتحاول العادات الأخلاقية أن تزيل كل الحواجز التي قامت حوله ، وأن تفتح له من كل جانب آلاف الطرق التي تؤدي إلى الثراء . فقد أضحت نظرية معينة من نظريات الصناعة

أقوى من القوانين ومن العادات الأخلاقية ، تقيده بمهنة معينة ، بل وبقعة معينة لا يستطيع منها فككاً ، لأنها عينت له مركزاً محددًا ثابتاً في المجتمع الإنساني ، ليس له أن يتجاوزه إلى غيره ؛ لقد جعلته جامدًا وسط عالم متحرك .

وكلما توسع الناس في تطبيق مبدأ تقسيم العمل ، ازداد العامل ضعفاً على ضعفه وضاق أفقه العقلي وزادت تبعيته لسواه . وهكذا نرى أن الفن يتقدم والصانع يتدهور . ومن جهة أخرى ، فكلما استبان أن المنتجات الصناعية تصبح أرخص ثمنًا وأحسن نوعاً ، إذا ما اتسع نطاق المصنع وازداد رأس المال المستثمر فيه - ازداد عدد الأثرياء الذين ينزلون إلى ميدان الصناعة ، وهو ميدان كان متروكاً من قبل للصناع الفقراء والجهلة . فجسامته الجهود التي يجب أن تبدأ في هذا الميدان ، وأهمية النتائج المتوقعة من ورائها ، تجذبانهم إليه ، وهكذا نرى أن علم الصناعة ، يرفع طبقة أصحاب الأعمال في الوقت الذي ينزل فيه بطبقة العمال .

فبينما يعمل العامل على تركيز كل همه وكل عقله في دراسة جزء معين من أجزاء السلعة الواحدة ، يقوم صاحب العمل بالإشراف على هذه السلعة كلها في جعلتها ، ومن كل نواحيها ، فيتسع عقله ، على حين يضيق عقل الصانع . ولا يمضي زمن طويل حتى لا يتطلب هذا الصانع في عمله سوى ازدياد قوته الجسمية ولا حاجة به لاستعمال عقله وذكائه ، على حين يكون صاحب العمل بحاجة إلى مزيد من العلم ، بل إلى عقريه ، حتى يتحقق النجاح لمصنعه . وسرعان ما يصبح أشبه ما يكون بمن يتولى إدارة امبراطورية واسعة الأجزاء ؛ أما العامل فيقترب من البهم السوامم .

ليس ثمة شبه إذن بين الصانع ورب العمل ؛ وزيادة على ذلك فالفوارق التي بينهما تزداد يوماً بعد يوم ، فما أشبه الصلة التي بين الاثنين بالحلقتين اللتين في طرفي سلسلة طويلة ، كل منهما يملأ المركز الذي أعد له ، فلا يرحه ؛ فأحدهما يعتمد باستمرار اعتماداً كبيراً وضرورياً على الآخر ، ويبدو كأنه إنما خلق ليطيع ، على حين يبدو الآخر أنه خلق ليأمر فيطاع . فما عسى أن يكون هذا غير نوع من الأرستقراطية عنها ؟

وكلما ازدادت أحوال الناس الذين تتكون منهم الأمة مساواة ، ازداد الطلب على السلع المصنوعة ، وأصبح عاماً ، واتسع اتساعاً كبيراً ، ذلك إلى أن رخص الأسعار الذي يجعل هذه السلعة في متناول رقيقى الحال ، يصبح هو نفسه عنصراً هاماً من عناصر النجاح . ومن ثم كان كل يوم يمر يشاهد عدداً من الرجال واسمى الثراء والمتعلمين تعليماً طيباً يقلبون على توجيه ثرواتهم ومعلوماتهم إلى الصناعة ، ويعملون على إنشاء المؤسسات الصناعية الضخمة ، وعلى تقسيم العمل فيها تقسيماً دقيقاً ، وبذلك يواجهون الطلبات الجديدة التي تنال عليهم من كل حدب وصوب . وهكذا كلما اتجهت الكثرة من الناس في الأمة إلى الديمقراطية ازدادت تلك الطبقة الخاصة التي يعمل أفرادها في الصناعة ،

أرستقراطية . فيزداد الناس تماثلاً في ناحية ، وتفاوتاً في الأخرى ، فعدم المساواة يزداد في الطبقة الصغيرة العدد بنفس النسبة التي يقل بها في المجتمع الكبير . ومن هنا يبدو أنّ إن تعمقنا الأمر تبين لنا : أن الأرستقراطية تنشأ بمجهود طبيعي وسط الديمقراطية نفسها . ولكن ليس ثمة شبه بين هذا النوع من الأرستقراطية وبين الأنواع السابقة عليه بحال من الأحوال . ويلاحظ على الفور أن هذه الأرستقراطية الجديدة استثناء فظيع قائم وسط الحالة الاجتماعية في جملتها ، ذلك لأنها لا تصدق إلا على الصناعة نفسها ، وعلى بعض المهن الصناعية دون غيرها . فالمجتمعات الأرستقراطية الصغيرة التي يكونها طائفة من رجال الصناعة وسط تلك الديمقراطية الهائلة التي في عصرنا - هذه المجتمعات الصغيرة تحتوي ، كما كانت تحتوي المجتمعات الأرستقراطية الكبرى في العصور السالفة ، على أفراد واسعى الثراء ، إلى جانب جمهور كبير بلغ به الفقر كل مبلغ من البؤس والشقاء . فليس لدى الفقراء سوى وسائل قليلة للخلاص من حالتهم هذه كى يصبحوا أغنياء ، باستمرار كل يوم عن اليوم الذى قبله ، أو هم يتركون العمل بعد أن يحققوا أرباحاً طائلة . ومن ثم تكون العناصر التي تتكون منها طبقة الفقراء ثابتة ، أما العناصر التي تتكون منها طبقة الأغنياء فليست كذلك . والحق أن طبقة الأغنياء غير موجودة في الواقع على الرغم من وجود الأثرياء ، فهؤلاء الأثرياء ليس لهم عواطف ولا أغراض مشتركة ولا تقاليد متبادلة ولا وحدة في الآمال والأمانى تربطهم . فهم إذن أفراد ، بدون طبقة محدودة لهم تضمهم .

فليس الأغنياء غير متحدين بعضهم مع بعض اتحاداً وثيقاً فحسب ، بل ليس بينهم وبين الفقراء أية رابطة حقيقية . فموقفهم النسبى إزاءهم ليس بالموقف الثابت ، فهم يظنون يقتربون ويتعدون دائماً بعضهم عن بعض بحسب ما تقتضيه مصالحهم . فالعامل يعتمد عادة على صاحب العمل ، لا على أى صاحب عمل بعينه ، فكلاهما يلتقيان في المصنع ، ولكن أحداً منهما لا يعرف الآخر خارجه . فبينما يتلاقيان في نقطة واحدة ليس إلا فالبون بينهما واسع في سائر النقاط الأخرى . فصاحب العمل لا يتطلب من العامل غير عمله ، والعامل لا ينتظر من صاحب العمل غير أن يدفع له أجره . فلا صاحب العمل يضطلع بأية التزامات لحماية العامل ، ولا العامل يضطلع بالدفاع عن صاحب العمل ، فليس بينهما أى ارتباط دائم ، لا من حيث العمل ، ولا من حيث الواجب ، فأعضاء الأرستقراطية الناشئة عن العمل يندر أن يسكنوا بين ظهرانى العمال الذين يتولون هم إدارة أمورهم . فليس غرض الأرستقراطية هذه أن تحكّم هؤلاء العمال ، بل أن تستغلهم لما فيه مصلحتها ليس إلا . فكل أرستقراطية تنشأ على هذا الأساس لا يكون لها أى سلطان قوى على من تستخدمهم ، وإن نجحت في الاحتفاظ بهم فترة من الزمن فسيفلتون من قبضتها في الفترة التي تليها ، فهذه الأرستقراطية لا تعرف كيف تريد أن تعمل ، ولا تستطيع أن تعمل ما تريد .

لقد كانت الأرسقراطية الإقطاعية في العصور السابقة مقيدة بالقانون ، أو ظنت أنه يضطرها إلى العمل على غوث من يخدمونها . وعلى تخفيف ما يعانونه من متاعب وآلام ، ولكن الأرسقراطية الصناعية في عصرنا الحاضر تعمل أولاً على إفقار من يخدمونها ، كما تعمل على انحطاطهم . ثم تدعهم يعيشون على صدقات الجمهور . ولا يخفى أن هذه نتيجة طبيعية لما ذكرناه من قبل . إن بين العامل وصاحب العمل علاقات كثيرة ، ولكن ليس بينهما ما يمكن أن يسمى اتحاداً وارتباطاً حقيقياً .

وعلى الجملة . فإني أرى أن الأرسقراطية الصناعية الآخذة في التواء والازدياد أمام أبصارنا . من أقسى الأرسقراطيات جميعها التي ظهرت في هذا العالم . وهي في الوقت نفسه من أكثرها انعلاقاً وأقلها خطراً . وعلى الرغم من ذلك كله فإن على أنصار الديمقراطية ومحبيها أن يحرصوا كل الحرص على أن يوجهوا أنظارهم إليها باستمرار . ويرقبوا أمورها . فإذا ما حدث أن قام بين الناس تفاوت دائم في أحوالهم الاجتماعية . وعادت الأرسقراطية تتغلغل من جديد في شئون العالم . كان لنا أن نتنبأ بأن هذا هو الباب الذي ستعود منه .